طه وادي

الممكن والمستحيل!

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

خيطٌ رفيع

بين الممكن والمستحيل

ينسجه إنسانٌ

ليقتل به

إنساناً آخر ..!!

طه وادى

الفصل الأول

حضرة القاضية المبجلة ، السيدة الفاضلة وكيلة النيابة :

أرجو أن تسمح عدالة المحكمة أن أعرض عليكم بعض ظروف هذه القضية المعقّدة ، التى نحن بصدد الدفاع عنها ، والترافع فيها ... واستماع شهادة الشهود . إننا نودّ أن نظهر الحقيقة ، والحقيقة وحدها ... ولا شك أن كل محام يترافع فى قضية ، يريد أن ينصف موكّله ، وأن يبرئه مما نسب إليه حقاً أو ظلما . لكنى حين أمثل أمامكم أود أن أقول صراحة : إننى لا أريد إلا إظهار الحقيقة مهما تكن مُرّة ، ونظراً لأن هذه القضية من نوع خاص ، فاسمحوا لى أن أقدم لكم بعض الأطراف المعْنية فيها :

إننى — يا حضرات السادة — المتهمة ... والقاضية ... ووكيلة النيابة ... وكاتبة الجلسة ... وحارسة القفص ... بل أنا أيضا ... المحامية ... والشاهدة ... والجمهور .

وقد آثرت البدء بهذه الأمور الشكلية ، لأن أية قضية يجب أن تكون صحيحة من حيث الشكل والمضمون . إننى امرأة واعية — ولا أكتم سراً إذ أعترف بأنى متمردة أيضا — وأود أن أوضح لكم من سيكون المتهم — ولا أقول المذنب .. فالمتهم ، أى متهم ، برىء حتى تثبت إدانته — ومن القاضى ... ومن الجلاد .. ومن السبب فى كل ما حدث ؟ إننى أيضا

لا أهدف إلى أن أبرئ نفسى ، ومن باب أولى فإنى لا أهدف إلى تبرئتكم أيضا .!!

بعد هذه الفذلكة ـ التى لا أعتذر عنها ـ فإننى آمل أن أحظى بتقديركم للقضية ، وليس بعطفكم عليها . إن التاريخ السرى والظاهر لهذه الفترة ، يدخل بنا فى مرحلة من أسوأ المراحل ، لأنى أنا الشاهدة فيها عليكم . قد تفهمون هذا أو لا تفهمون ، هذه مشكلتكم أنتم .. وقد لا تكون . المهمّ هو أنى سوف أحكى رضيتم أم أبيتم ؟

لست جبانة أو خائفة .. ولكنى مأزومة وقلقة ، على من ؟ أو على ماذا ؟ لست أدرى .. ولعلكم .. ..!!

أيها السادة الحاضرون / الغائبون : باسم الحق والظلم .. والملائكة والشياطين .. باسم الأسد والحمار .. والذئب والحمل : نبدأُ وقائع الجلسة .

ـ أقسمى اليمين .

ـ أقسم باليمين وباليسار ... وبالوسط الفنى ، أن أقول الحق .

دقت النائبة بشدة على المنضدة وقامت مُنتفضة :

ـ المحكمة الموقّرة تطلب من المتهمة البعد عن أسلوب السخرية ، والدخول مباشرة فى الموضوع .

ـ الاسم والسن والعنوان

ـ منال عبد الله الموجى ـ خمس وعشرون سنة ـ ٣ شارع المدرسة بالجيزة .

ـ هل تأكدت المحامية أن كل الشهود حاضرون ؟

ـــ كلهم حاضرون يا حضرة القاضية إلا واحدا
ـــ من هو .. ؟
ـــ تمثال إبراهيم باشا .. ممثل القومية العربية ؟

انتفضت النائبة من جديد ، وصاحت وهى تلوّح بيديها فى عصبية : إننا أمام متهمة غريبة يا حضرة القاضية .. وأرجو تسجيل كل ما تقول ، حتى نآخذها بشدة على كل ما فعلت وقالت .

ـــ أطالب باستخدام الصبر والعدل مع موكّلتى ، حتى نساعدها على أن تقول كل ما عندها .

قالت القاضية فى ثقة وهدوء ، وهى تنظر من خلف نظارة ذات زجاج سميك : أرجو أن تثقوا جميعا فى عدالة القضاء ، القانون فى صف المتهمة ....

ـــ لست متهمة حتى الآن على الأقل .!

ـــ من أذن لك بالكلام ، ومقاطعة المحكمة ؟ لو لم تكونى فى قفص الاتهام لأدخلتك من جديد فيه . ثم من أنت ومن أدراك بالقانون ..؟! يا عزيزتى نحن الذين نعرف القانون ونطبقه بالطريقة التى نراها نحن لا أنت .!

بعد ذلك وقفت النائبة ، وقالت : لقد اطلعت النيابة على محاضر التحقيق الأولية ، وأقرت بأهلية المحكمة للنظر فى القضية . وقد سلمت المحامية ـــ موكلة المتهمة بذلك . أرجو أن تعرف المتهمة منال عبد الله أن كاتبة الجلسة تدوّن كل كلمة ـــ كل كلمة ، تتفوه بها بقصدٍ أو بدون ، كما أرجو أن تعرف أيضا أن عندنا من الوسائل ما نضمن به إظهار الحق

وتحقيق العدالة .. مفهوووووم !!؟

أحكمت الحارسة وضع الحزام العريض على وسطها فى ثقة ، بينما قالت المحامية : أرجو ألا يكون فى هذا تهديد لموكّلتى

طرقت القاضية بشدة على المنضدة ، وقالت : ينبغى أن يكف الجميع عن الثرثرة العبث ، ولن أسمح لأى فرد أن يتحدث إلا فى الوقت الذى تسمح به عدالة المحكمة ، حتى لا نحوّل مسار القضية ولا نضيّع الجهد فيما لا فائدة فيه . (التفتت ناحية المتهمة) أين تعملين ؟

ــ موظفة حسابات فى شركة الأمل للمستحضرات الطبية .

ــ الحالة الاجتماعية ؟

ــ أرملة .. وعندى طفلة اسمها نائلة .

ــ منذ متى تعرفين المدعو / فيصل سلمان ، الذى قبضنا عليك معه فى الفندق ؟

ــ منذ أربعة أيام فقط .

ــ لكنه يتردد على القاهرة منذ خمس سنوات .

ــ هذا شىء لا يخصّنى .

ــ إذن لم ذهبت إليه فى الفندق .. وبالتحديد إلى حجرته ؟

ــ لقد جاء إلى الشركة لشراء صفقة أدوية ، وطلب منى ــ باعتبارى موظفة حسابات ــ الرأى فى بعض المواد التى يريد شراءها .

ــ هل من لوازم الاستشارة زجاجة « جونى ووكر » وسجائر « روثمان » وساعة حريمى ذهبية .؟

ــ لا تعليق .

ـــ هل عرض عليك شيئا فى مقابل هذه الاستشارة .؟

ـــ لم يعرض .. وبالتالى لم أقبل ولم أرفض .!!

ـــ إجابتك تحمل اعترافاً ضمنيًّا بأنك كنت ستقبلين الرشوة نظير خدمة ما .. ما هى تلك الخدمة ؟

ـــ لم أقبل أية رشوة ... ولم أكن على استعداد لتقديم أية خدمة . ثم إن هذه الأشياء وغيرها كانت موجودة فى الحجرة ، واعترف الرجل بأنها له ، ولم يكن معى أى شىء منها .

ـــ هذا الرجل له علاقات واسعة ، ببعض أحزاب المعارضة وزعماء الرفض .

ـــ هذا ليس شأنى .

ـــ ماذا كان يريد منك على وجه التحديد ؟

ـــ عمل بعض الحسابات نظير مكافأة .

ـــ هل تعتقدين أن الأمر بهذه البساطة ؟

ـــ قلتُ ما اعتقد .. وهذا يكفى .!

ـــ سؤال آخر شكلى .. لكنه مهم جدا . ليلة القبض عليك كنت تلبسين فستانا أحمر .. لماذاااا ؟!

ـــ مجرد مصادفة . هل يمكن أن استأذن عدالة المحكمة فى أن أدخن سيجارة « كليوباترا » ، لتعرف أنى بريئة من « الروثمان » براءة الذئب من دم يوسف .!!

انتفضت ممثلة النيابة قائمة تصيح : يا حضرة القاضية ، هذه متهمة من نوع خاص .. إنها لا تراعى القيم ، ولا تحترم المبادىء والتقاليد . وأرى أن

فيما قالت ....

طرقت القاضية مرات ومرات ، ونظرت من خلف المنظار ، فأسكتت النائبة قبل أن تكمل : يجب أن يحترم الجمهور هيبة ساحة القضاء ، ومن باب أولى يجب أن تلتزم النائبة الموقرة بذلك . وأرى أنه من باب العدل أن ترفع الجلسة للاستراحة حفاظاً على حياد التحقيق وأمانة الحكم .

* * *

تقوقعت منال على السرير فى حجرة ذات ضوء شاحب . كانت تلبس قميص نوم أبيض ، بينما استغرقت نائلة فى نوم عميق . مع دخان السيجارة ـــ الذى تبتلع بعضه فى شراهة ، ويفنى البعض الآخر فى ضوء الحجرة الخافت ـــ تأملت فانتازيا المحاكمة الساخرة التى نصبتها لنفسها ، ولسان حالها يتساءل : هل يمكن أن يكون الإنسان الخصم والحكم مع ذاته ..؟ ماذا حدث للدنيا .. امرأة فى عمر الزهور تتألم .. تتأوه .. تصرخ طالبة الرحمة .. ولا مغيث .؟!

أبوها عبد الله الموجى .. لا أثر له فى حياتها .. فعاشت حياة صعبة . اختارت زوجا قوى الشخصية صاحب مركز اجتماعى مرموق ، لكنه تركها ... ومضى . مات مصطفى بركة مدير شركة الأمل للمستحضرات الطبية . ليته رحل وكفى ، وإنما ترك لها طفلة رضيعة لا يتجاوز عمرها خمسة شهور . هذه الحجرة التى شهدت أيام الطفولة هى نفسها التى سوف تنشأ فيها نائلة من جديد . منال الأم كان لها أب يحبها ويدللها ، ومع ذلك لم تنج من عثرات الحياة . نائلة الطفلة اليتيمة ..

لا أب ، لا عم ، لا خال ، حتى إخوتها — من الأب — لا يعترفون بها .

أحمد يوسف كان الحب الحقيقى الذى عاشت له ، لكنها فى لحظة قررت .. واختارت . ليت أحمد فعل أى شىء ! لو فعل لأنقذ حبه .. وأنقذها من السراب الذى ركضت ناحيته ..! تذكرت أنها تخدع نفسها ، فقد كان ليلة الزواج فى السجن .

حسنين الميكانيكى أذاب فى حبها دستة أحذية ، وأحضر الكثير من هدايا « الموسكى » و« كبابجى الدقى » ، ثم رحل إلى قطر ، وأحضر لها ولأسرتها الكثير ، مما تجود به محلات سوق « الدوحة » ، لكن بنى آدم لا يملأ عينيه سوى التراب . ابتسمت داخل ذاتها ، وهى تتذكر طيف شعبان عوضين الذى حفظ من أجلها كل ما صادفه من شعر الغزل . كان يزعق من الدور الأول حتى يصل صوته إلى الدور الثالث ... لعل وعسى :

أيـا جارتـا إن المزارَ قريبُ — وإنّي مقيمٌ ما أقامَ عَسِيبُ
أيا جارتـا إنّا غريبـانِ ها هُنا — وكـلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ

أحست منال حركة أمها فى الصالة ، خشيت أن تزيد من قلقها ، فأطفأت الأباجورة وتمددت على السرير ، وجذبت اللحاف حتى بداية صدرها . أخذت تتقلب يمينا ويسارا . أخيرا استلقت على ظهرها فى الظلام ، لكن الهواجس والوساوس ما زالت تعصف برأسها . ليل القلق طويل . راودتها فكرة عبثية ، فكرة أن تستعيد ذكريات الماضى .

* * *

الرقيب عبد الله الموجى — أبى — كان فلاحا ، لكنه آثر الوظيفة على الفلاحة ، والحياة فى القاهرة على العيش فى الريف . عندما ولدتُ كان

غائبا ــ فى أحد معسكرات الجيش بالزقازيق ــ فأرسل إلى أمى يقول : إذا جاء المولود ذكرا ، فليكن اسمه « جهاد » ، وإذا جاءت أنثى فلتسمها هى بما تشاء .!! ظل الرقيب متطوع عبد الله الموجى يحلم بأن يكون له ولد ذكر ، غير أن أمى ولدت له من بعدى طفلتين ، وأغلقت الباب بفضل حبوب « أنفولار » .

كنتُ حلوة ، خفيفة الدم ، ذكية ، على قدر من الجرأة ــ منذ طفولتى ــ لا أستطيع أن أحدد مدى تأثير عوامل الوراثة على . أحيانا أظن أنى « فلتة » فى عائلة الموجى . كان أبى شديد الفرح بى والحب لى ، سمح بأن أمارس حريتى منذ الصغر . كان يأخذنى معه عندما يسافر إلى أهله فى الريف ، أو عندما يذهب لقضاء عمل ما . شيئا فشيئا صار يدعونى « الواد ميمى » . أعجبنى دور « الولد ميمى » فبدأت أمثّله بإتقان فى المدرسة ، ومع أبناء الجيران . أصيب أبى بخيبة أمل شديدة عندما نجحت فى الإعدادية بمجموع لا يتناسب ــ بأى حال ــ مع جرأتى وقدراتى الهائلة فى الكلام . رفضتُ الإعادة ــ حتى أكون طبيبة كما تمنّى ــ ولم يكن أمامى إلا مدرسة التجارة . بنات التجارة نصف مجتهدات فى العلم والدراسة ، لكنهن فى الحياة وخبرات الأنوثة « معلمات » . الفلسفة البراجماتية فيهن فطرة وطبيعة . بدأت فى السنة الأولى أدخل عالم « الأنوثة » لأول مرة ، بعد أن كان أبى ينمى فىَّ شخصية « الولد ميمى » . أحسست أنى أولد من جديد . كنتُ مثل المحروم الذى وجد نفسه ــ فجأة ــ أمام « بوفيه » مفتوح ، فيه بعض ما يعرف ، والكثير .. الكثير مما لا يعرف .. أو يتخيّل !!

بدأ أولاد الحارة ينظرون إلىّ نظرات خاصة . البيت الذى نسكن فيه ــ بيت الحاج عوضين ــ يشكل ظاهرة « اجتماعية » ملفتة ، فكل سكانه من قريتنا ــ كفر بداوى القريبة من المنصورة ــ الحاج عوضين وأسرته ودكانه يشغلون الطابق الأول ، الطابق الثانى أسرة يوسف رشدى المدرس ، أما الطابق الثالث فكان لأسرتنا أسرة الصول عبد الله الموجى .

ذات صباح لبستُ زيا جديدا . لبست « السونتيان » لأول مرة ، ووضعت بعض القطن الطبىّ فيها ، حتى تثبت على صدرى . ارتديت قميصا وبنطلونا ــ بالطبع اشتريتهما دون أن تعرف أمى . متى ..؟ تركت شعرى ــ ذيل الحصان ــ يتدلّى فى دلال خلف ظهرى : وضعت بعض أدوات التجميل فى الحقيبة حتى أجمل وجهى على السلم .

ــ ما شاء الله يا بنت عبد الله ، هل أنت ذاهبة إلى السينما أم إلى المدرسة ؟.. لن تخرجى إلا بعد أن تغيّرى ملابسك .

ــ أبى يعرف .. وهو موافق . أنا بنت أبىْ . أما ماجدة وأمينة فهما ابنتاك فقط يا ماما نعيمة .

بدأت أبحث فى أبناء الحى والبيت عن فارس الأحلام . مضتْ سنة والبحث ما زال جاريا . كانت كبريائى تمنعنى من الاستجابة لمعابثات من أقابلهم فى الشارع أو فى الأتوبيس أو أمام المدرسة . روّضت نفسى على أن أتواضع فى أحلامى . بدأت أعد العدّة لاصطياد الدكتور أحمد يوسف . بالطبع هو ما زال فى السنة الثالثة ــ كلية الطب ، لكنه بدأ يلبس البالطو الأبيض . مهما كان حماراً أو ثوراً فإنه سوف يصبح طبيباً .. وأصير أنا حرم الدكتور . كان أكبر منى بخمس سنوات تقريبا ، لكنه لم يكن

— عندما عرفته — يجيد شيئا سوى قرض الكتب ، وابتلاع أصابع المحشو ، التى تعدّها أمه كثيراً فى أيام الشتاء والصيف . أتعبنى أحمد كثيراً حتى بدأ يفهم مغازلاتى ، ويفعل ما كنت أتمنى !!

كلما اقترب أكثر أقول لنفسى : « يا ولد يا ميمى .. اثقل حتى تصل » . فى نفس الفترة تقريبا — حينما كنت فى الدبلوم — بدأت أمى تستميل قريبها الميكانيكى حسنين حامد ، الذى كنت أتندر عليه مع أبى وأختىّ ، وأسميه (ح . ح .) أى حمار حديد . كان المسكين يأتى البيت مسلحا بالهدايا والطيبات من الرزق . اللهم سامحنى .. كنت آخذ زجاجات العطر ، التى يحضرها ، لكى أتعطّر بها لأحمد . عندما تراه أمى تلقاه بفرحة طفل ، وهى تحمل منه الأكياس :

— لم كل هذا التعب يا ابن خالى ؟ أصيل والله يا حبيبى . طول عمرى أقول الدم لا يصير ماء . تعال يا أبا ميمى ، الباشمهندس حسونة وصل .

أول مرة التقى بشعبان كانت صدفة محضة ، لكنها لا تُنسى . كان يحفظ الشعر بطريقة فقيه الكتّاب ، ويصيح بصوت عالٍ — ربما ليسمع الموتى الذين تخيل أنى واحدة منهم . أمسك كتاب « المعلقات العشر » بيد ، وعوداً من القصب بيد أخرى ، وهو يتجول على السطح مثل خفير الدرك . أخذ يترنم بصوت عال ، وهو يهز جسمه مع حركة الإيقاع :

يا دارَ عبلـةَ بالجواءِ تكلّمِـي ... وعِمِي صَباحاً ، دارَ عبلةَ واسْلمى

دارٌ لآنسةٍ ، غضيضٍ طرفُها ... طوْعِ العِناقِ ، لذيذةِ المُتبسَّمِ

لم تسعه الفرحة والدهشة عندما رآنى .

— سعيدة يا شيخ شعبان .

— أستاذ ، أستاذٌ من فضلكِ يا آنسة .!

— كل تلاميذ الأزهر شيوخ .

— كان هذا قبل الثورة المباركة يا آنسة .. جامعةُ الأزهرِ الآن مثل أية جامعة أخرى .

كل أساتذتى يتنبأون لى بمستقبل مرموق ، فأنا دائما — بغير فخر ، والحمد لله — الأول على طلبة كلية اللغة العربية .

أحسستُ أنه يتأملنى فى أناة وتلذذ ، ثم أردف :

— قصب .. معى قصب ، ألا تريدين يا آنسة منال ..؟!

لا أدرى لم جريتُ ..؟ أخذت أجرى .. أجرى على السلم ، وإذا بى أفاجأ بأحمد . تملكته غيرة حارة ، حينما رآنى بقميص نوم شفاف عارى الذراعين ، وشعرى يتدلى مسافراً فى كل ناحية خلف ظهرى . لم أجرؤ على مواجهته .. أو أن أقول له شيئا ، رغم أنى خرجتُ — عامدة — كى ألقاه . أخذت أجرى إلى أن دخلت حجرتى ، وأغلقت الباب خلفى !

* * *

أوه .. يا أحمد .. يا حمادة .. يا حبى الذى كان ؟ ضاعت كل الأحلام يوم ضعت منى !! عرفت معك الحب — الحقيقى . كتبت لك أول رسالة .. أخذت منك أول قبلة . كنت أول رجل أسير معه ، كما تحلم كل فتاة أن تسير بجوار حبيبها . تعلمت على يديك كيف يكون الإنسان إنسانا .. بالثقافة .. والفكر .. والبحث عن حلول لأزمات الوطن ، وليس لأزماته الخاصة . اقتنعت بحب مصر ، ليس عن طريق الكلام والخطب ، فأنا أعرف نفسى — رأس صلب ومخ عنيد . ذهبت مع أحمد

ـــ برغبة فتاة حرمت من الجامعة ، ومن كلية الطب ، حلم أبى الصول عبد الله الموجى . قررت أن أذهب معه للقيام بهذه الرغبة المحبطة ـــ التى ضاعت من حياتى إلى الأبد . فى الحقيقة كانت هناك وراء الزيارة نزوة خاصة .. أنثوية ، فأنا امرأة ، وأصر على ممارسة أنوثتى ـــ شيء طبيعى ، هذا حقى . أردت أن تعلم كل زميلات أحمد ، أنه يحبّنى أنا .. أنا وحدى ، لكى أقطع خيوط الوهم عند أية واحدة منهن . كانت الحركة فى الكلية تنذر بشيء غير عادى . فجأة تجمّع الطلبة فى مظاهرة ، وأخذوا يرددون هتافات عالية . تعجبت كثيرا عندما وجدت الطالبات مع الطلبة . آه لو تعرف أمى أين أنا الآن ؟ كانت الهتافات تدور حول شعارات متناقضة : مصر سوف تحارب ـــ لن نسلم أو نستسلم ـــ وحدة المعركة يا عرب ـــ ارحمونا من الغلاء واللصوص ...!!

كنت لا أستطيع ـــ رغم برودة ديسمبر ـــ أن أتوقف ، أو أفكر . زادنى الإحساس بوجود أحمد إصرارا وحماسة . عبرنا الكوبرى ـــ فى الطريق إلى جامعة القاهرة .

جدار الغضب يتحرك فى بطء وثقة . بعد أن تجاوزنا تمثال « نهضة مصر » فاجأتنا قوات الشرطة ـــ قال أحمد بعد ذلك إنها قوات « الأمن المركزى » . كان الطلبة يهتفون من أجل الحرب ضد اليهود ، لكنى وجدت الحرب اشتعلت فجأة ضد الطلبة : قنابل مسيلة للدموع ـــ جنود يحملون العصى الغليظة ـــ طلبة يقذفون الطوب والحجارة . استطاعت قلة أن تهرب . غامر البعض وقفز فوق سور حديقة الحيوان وسور حديقة الأورمان . العصى الغليظة بدأت تلهب الأجساد

الخضراء . تصدع جدار الغضب . حاولت أن أهرب .. لم أفكر حتى فى أحمد . تضاءلت بشكل قميئ ، حين وجدت فتاة نحيلة سمراء تعلو كتفى زميلين ، وتصيح :

يا مصر يا عربيّـــة إخنـــــــا ولادك

يا وزير الداخليّـــة لمّ رجـــــــالك

بدأ الجدار يتماسك .. ويقوى ، ويحتمى بسور حديقة الحيوان ، ووقف بجواره يشكل حلقة حول نفسه . أدخلنى الطلبة مع بقية الطالبات إلى جوار السور ، حتى نبتعد عن مجال الأذى . حمدت الله على أنى لم أفرّ .. لأن بعض الذين فروا ، أخذتهم العربات المغلقة إلى ... إلى حيث لا يعلم أحد سوى الله .. ووزير الداخلية ...!!

* * *

لماذا نهرب جميعاً من مواجهة النفس . لو استطاع الإنسان أن يعيش مع نفسه لحظات قبيل النوم لتغيرت أشياء كثيرة فى الحياة . فى مجال المواجهة أو المساءلة ، لا أدرى كيف مرت على كل هذه الظروف الصعبة ، بينما الكثير من زميلاتى لم يتزوجن بعد ، ولم تنته ، دراستهن الجامعية ، من كان يظن أن الجيل الجديد ــ جيل الثورة المباركة ــ يلقى كل هذه الآلام والمشكلات ؟!! أكبر مشكلة صادفتنى هى مصطفى بركة مدير شركة الأمل للمستحضرات الطبية . عندما قابلته جذبنى .. أدهشنى .. حيرنى .. أعجبنى .. أتعبنى .. أسعدنى .. عذّبنى .!! استسلمت دون وعى أو إرادة .. لماذا ؟ لست أدرى .. لكنه وعد مكتوب ، ونحن الذين نكتبه بأيدينا ، فنحن لا نلقى التبعة على القدر إلا إذا فشلنا !!

ــ أحبك يا مصطفى .. أنت الأب الذى كنت أتمنّاه ، والحبيب الذى أحلم به .

ــ أنت فتاة عظيمة ... لن أجعلك تندمين .

ــ لا أدرى كيف كنت أعيش بدونك ؟

ــ كنت تعيشين بالفعل .

ــ حياة الأرانب والماعز ليست حياة . رأيت معك الحب الحقيقى .

ــ الحب الحقيقى علاقة .

ــ أنت قاسٍ .

ــ ولم لا تقولين أنت صريح .!!

انتقلت علاقتى بالمدير من المكتب إلى المنزل ، والأجر الإضافى مغر .!! كلمات مصطفى تمزّق صورة أحمد فى مخيّلتى ، كان جسمه الضخم الممتلئ يمحو طيف أحمد النحيل . كنت أسيرة عباراته المعسولة وخبرته الطويلة ورحلاته العجيبة إلى بلاد العالم الآخر . درت فى قطبه كما يدور المريد فى دائرة القطب ، يتمنّى أن يسلك الطريق ، ويتوحد بالرفيق . لم يجد النسر العجوز أية صعوبة فى أن تقع العصفورة القلقة فى عشه الحصين . مع الأيام انتقلت صورة أحمد ومثله العليا إلى اللا شعور ... ولم يعد حتى مجرد ذكرى !!

* * *

الفصـــل الثانـى

قال الروائى يا سادة يا كرام :

تركت منال لكم تقص عليكم بعض مواقف من حياتها ، وتصور لقطات متقاطعة من حكاياتها ، فكاتب اليوم ينبغى أن يكون ديمقراطى النزعة مع شخصياته وقرائه ، يترك المجال للشخصيات تعبّر عن نفسها ، وترسم إطار حياتها ، ولا يتدخل بينها وبين القارئ ، حتى يكتشف القارئ نفسه ما توحى به الأحداث ، وتدل عليه الحكاية .

ومن عجب أن هناك كاتبا قديماً اتّبع هذه الطريقة فيما روى من قصص وأخبار ، يدعى أبا الفرج الأصفهانى ، صاحب كتاب « الأغانى » . ذهبت أبحث عن الكتاب عند بعض الأساتذة وطلاب الدراسات العليا ، فوجدت كلهم يعرفونه ، لكن أحداً لم يقرأه أو يمتلكه . فاعتمدت على الحافظة فى تذكّر نص قاله ، فى سياق حديثه عن « أخبار مجنون ليلى » ، حيث قال إنه جمع من أخبار « المجنون » ما اتّسق ولم يختلف ، فإذا اختلف الرواة ، نسب كل رواية إلى راويها ، حتى يبرّئ نفسه من شك طاعنٍ أو متتبّعٍ للعيوب .!!

كما عرفت أيضا أن هذه طريقة حديثة فى كتابة الرواية المعاصرة فى كثير من بلاد الغرب والشرق ، وفى بعض بلدان العالم الثالث ، الذى يسمى فى بعض الأحيان الدول النامية أو النائمة ، لست أدرى فأنا — كما

قلتُ — صاحب حافظة خئون .. ولله فى خلقه شئون .!!

بعد هذا الاستطراد — الذى لم يكن منه بدّ — تملكنى الغيظ — أنا مؤلف القصة وراويها — من منال — الشخصية الرئيسية فى هذه الرواية . فهذه المرأة الصغيرة (٢٥ سنة) لا أستطيع — حتى الآن — أن أصفها بأية صفة على وجه التحديد ، فلا تزال هناك كثير من الأمور لمّا تتضح بعد .!!

هل الشجرة حين تسقط أو الزهرة عندما تذبل ، هل هما المسئولتان عما أصابهما أم أن هناك عوامل معقّدة ومركبة تؤدى إلى السقوط والذبول .؟ بمعنى آخر — يا سادة يا كرام — إلى أى مدىً يكون الإنسان قاتلًا ومقتولًا فى ذات اللحظة .؟!

بعد ذلك قررتُ استدعاء منال ومناقشتها فيما قالت وفعلت . لكنى أود أن أقول لكم سراً ، لعله لا يخفى على بعض مُدمنى قراءة السير الشعبية والروايات البوليسية والمسرحيات العبثية ، وهو أنى خشيت أن تكون منال — التى اخترتها لتكون بطلة للرواية ، سريعة الاستثارة قريبة الغضب ، وأعوذ بالله من هذا الصنف التركى من النساء ، الذى يعد أتعب بنات حواء .!!

— مدام منال .

— نعم .

— لا تظنى أنك خدعتنى بهذه اللقطات المتباعدة والمتناقضة من حياتك .

— على كل حال ، كنت صادقة فيما حكيت .

ــ يبدو ــ لى على الأقل ــ أنه لا منطق فيما تروين .

ــ أى منطق تعنى .؟!

ــ منطق الرابطة التى توحّد بين هذه المواقف المختلفة .

أشعلت سيجارة . وأطلقت ضحكة ساخرة :

ــ هل نسيت شهر زاد ؟

ــ تقصدين عنصر التشويق ؟

ــ يبدو أنك كاتب متعب .!

ــ أنت التى تتعبيننى ، وتتعبين القراء معى ومعك .

استرخت على كرسى فوتيه فى دلال ، وأخذت تتأمل منظر الغروب من زجاج النافذة ، ثم قالت وهى غير ملتفتة إلىّ :

ــ ما رأيك لو دعوتك إلى كأس من البيرة المثلجة ؟

ــ هذا أمر له أكثر من دلالة .

ــ لا تكن بعيد الظن ، فقد كنت أشربها مع والدى فى هذا البيت ، وفى نفس الحجرة .

ــ تقصدين أنه هو السبب ...

ــ لم هذا التجنى ؟ إنه رجل فقير محروم ، كان يتمنى أن يفرح بى وبالحياة ، لكن.....

ــ ماذا ؟

ــ نحن قطع شطرنج فى يد لاعب ماهر .

ــ الأيام .. القدر .. الحظ .. كل هذه مبررات قديمة وبالية .

ــ أعرف أن فكرك الواقعى يعذّبك من أجل القراء ، فمن حقهم أن

تقدم لهم شيئا ممتعا .. ومفيدا .. ومعقولا ، من أجل القروش التى سيدفعونها . فلا تكن حنبليا واقبل دعوتى ، فإنه لا يردّ دعوة الكريم إلا لئيم .

— أنت سيدة مراوغة ، لم تكتف بما فعلته مع شخصيات الرواية ، والآن تريدين أيضا أن تفسدى العلاقة بينى وبين القراء .

— لا أظن أنى جديرة بهذا التقدير الذى تريد أن تمنحنى إياه .. الأمر لله .. ماذا تريد على وجه التحديد ؟

— الصدق .

— وهو نفس غايتى .

— إذن لماذا لا نترك لكل شخصية فرصة أن تعبر عن نفسها .؟

— موافقة .. موافقة .

(تذييل — قد يمكن الاستغناء عنه :

لا أخفى عليكم — يا سادة يا كرام — أن إعجابى بشخصية منال بدأ يزداد ، فقد ذكرتنى بمثل قديم يقول : إن الرجل يأخذ عشر ساعات حتى يقنع امرأة بما يريد ، والمرأة تأخذ ساعة واحدة لتقنع عشرة رجال بما تريد . تذكرت مسرحية « بيجماليون » ، وأنا أنظر إعجابا نحو بطلة قصتى ، فقد نظرت إليها بعينىْ رجل ، وأكبرت فيها ذكاءها .. ورشاقتها .. ودلالها الحلو . إن تلك الأرملة ناحلة الجسم ، رشيقة القد ، ذات شعر أسود ناعم طويل ، ووجه مريح لا يخلو من قدر من الطفولة البريئة والأنوثة الماكرة . تلبس بلوزة زرقاء وبنطلونا أبيض . برزت مفاتنها الرقيقة الدقيقة فى صمت مستملح ، وضعف صابر .

الأصل فى المرأة ــ أية امرأة ــ أن تكون جميلة .. أو متجمّلة على الأقل . وهذه الأرملة العذراء تجمع بين الجمال والذكاء ، والطيبة والشيطنة ، وخفة الدم وسحر الحديث . لم يقل لها أحد (لا) يوماً ما ، حتى الأب كان دائما يستجيب لكل ما تطلب .. ولم يحاسبها مرة على ما فعلت . فازدادت ثقة بنفسها ، وصارت عنيدة ، لا تسمع إلا صوت رأسها ، لذلك أصبحت متمردة .. متمردة على كل شىء ، حتى على نفسها أحيانا .) .

ــ منال .. هل أنت آسفة على شىء .؟

نظرت ساهمة ثم قالت : لست أدرى ..!! الماضى انتهى .. المهم أن تمضى الحياة .

ــ كيف ؟

ــ بكثير من العقل .. وقليل من العاطفة .

ــ على كل .. من تريدين أن يتحدث أولا ؟

ــ الدكتور أحمد يوسف .

ــ أرأيتِ .. ما زلت تحبينه ؟

* * *

أحس أحمد يوسف فرحة غامرة يوم نال بكالوريوس الطب من جامعة القاهرة ، لم يكن سر فرحته هو النجاح وحده ، وإنما لأن هذا النجاح يحقق لوالده يوسف البدراوى ــ ناظر مدرسة الحرية الابتدائية المشتركة بالجيزة ــ الحلم الذى عاش من أجله ، حلم الموظف الصغير ــ الذى لم ينل من التعليم سوى دبلوم مدرسة المعلمين ، ومع ذلك تمنى أن

يحقق أبناؤه ما عجز هو عنه . فى هذه السنة تخرّج الدكتور أحمد من كلية الطب .. والملازم ثان حسين من كلية البوليس ، ودخلت آمال كلية الآداب . الفرحة الكبيرة — وربما الوحيدة — للآباء هى أن يروا أبناءهم ، وقد وفقهم الله . لبس حضرة الناظر البدلة الوحيدة — كان يسميها « بدلة التشريفات » — التى لا تلبس إلا عند زيارة أحد المسئولين إلى المدرسة .. أو فى الأعياد .. أو عند السفر إلى القرية . كان يوزّع الشربات بنفسه ، غير عابئ بما قد يصيب بدلة « التشريفة » من طرطشة أو كرمشة ، فهذه سنة الأفراح — أفراح نجاح الأولاد .. حتى زينب — أم الدكتور — لم تكن تسعها الفرحة ، وهى تعد مع ابنتها آمال الشربات لتوزيعه على سكان حارة المدرسة ، وكانت تساعدهما أم منال .

* * *

فى مساء اليوم التالى التقى أحمد بمنال بعيداً عن البيت ، وصحبها لزيارة بعض زملائه فى المنيل ، حيث يقيمون حفل تخرج من نوع خاص .

— تأخرت كثيرا يا منال .

— كنت أستعدّ حتى أكون جديرة بك .

تجمعت الشلة فى شقة مفروشة كان يؤجرها بعض الزملاء . هذه الشقة عزيزة عليهم جميعا ، فقد شهدت ليالى المذاكرة ، وليالى المناقشات السياسية ، وليالى تدبير المظاهرات وكتابة المنشورات ، وليالى الفول والطعمية والبيرة . وحّدت بين الشلة سبع سنوات قضوْها معاً . فى السنوات الأولى للدراسة كان أحمد شديد العزلة والابتعاد عن كل شخص وكل شىء .. لم يكن يهمه سوى المذاكرة ، ليسعد أباه من ناحية ،

ومن أخرى كى يحافظ على المكافأة التى يحققها له تقدير « جيدا جيدا » . شيئا فشيئا صار خبيراً فى السياسة ، وله وجهة نظر معقولة . ثم الأخطر — وهذا مهم جدا فى تطور منحنى شخصيته — أنه بدأ يحبّ .. ويعنى بملابسه . خلع البلوفر البنى الأجرب ، الذى كان ينام فيه ويخرج به . بالطبع تقف وراء هذا التغير الكبير الآنسة منال ، كانت أصغر منه بحوالى خمس سنوات ، لكنها ما زالت تقصيه وتدنيه بحسها الأنثوى اليقظ ، حتى وقع فى حبها وصار أسير غرامها ، فهى حبه الأوحد .. حبه الأول .. وربما الأخير أيضا من يدرى ؟!

— أيها الزملاء والزميلات .. إننا نقف على عتبة مرحلة هامة من مراحل شلتنا العظيمة ، هذه الشلة التى استطاعت أن تشكل فى أقل من ثلاث سنوات تنظيم الطلاب المناضلين ، الذى سوف يصبح اسمه منذ اليوم الأطباء المناضلين .. من أجل القضاء على البلهارسيا والانكلستوما وفقر الدم ، وكل أنواع الفقر .. والتخلف . أيها الزملاء من الشهر القادم سوف تتفرقون فى القرى والأقاليم ، ويفتح لكم الناس قلوبهم تملئوها بالثقة ، قبل بطونهم التى تعالجونها بالعقاقير . فالتزموا بالمبادئ التى تعاهدنا عليها ....

صفقوا لعادل فهمى .. أو الزعيم — كما كانوا يسمونه — وأخذوا يتزاحمون على سندوتشات الفول والطعمية وأكواب الشاى . كانوا يريدون عمل شىء من أجل الوطن ، قلوبهم الخضراء تحمل نوايا طيبة رغم ما يحسونه من مرارة الحياة وقسوتها . كلهم فقراء .. لكن الفقر زادهم صلابة ، والنكسة جعلتهم يفكرون فى السياسة . الضباب يخيّم على بعض

أفكارهم ورؤاهم ، ومع ذلك لم يختلفوا لحظة على أن ما أُخذ بالقوة لا يُستردّ بغير القوة . القوة هى التى تحرك كل موازين العالم .. هكذا قال الحكماء والأغبياء .!!

ــ مضت سنوات على النكسة ، ولم نسمع أى قرار بشأن الحرب .

ــ مشكلات أى بلد محتل ليست مع العدو الخارجى فحسب ...

كان الجميع يشاركون فى الحديث ــ ما عدا منال . أحسّ أحمد أن قلبه يتمزق مع الآلام المستقرة فى أعمال كل منهم . مصر هذه المتعبة الفقيرة .. والشعوب العربية تلك القريبة البعيدة .. هل يقدرون .. هل يقدر مائة مليون عربى أن ينتصروا على ثلاثة ملايين يهودى ؟ لا يدرى لم دارت فى خاطره صورة إبراهيم باشا ابن محمد على بالتبنّى على فرسه الأدهم ، يوحّد بين البلاد العربية من شمال الشام إلى جنوب السودان . الأمة فى حاجة إلى زعيم مستبد عادل . إبراهيم باشا ، من يُعيدك من جديد ؟ آه .. يا عرب متى تتوحّدون ؟!

ماتت البسمة على الشفاه ، وهم يحتفلون بيوم النجاح . انتهت الليلة ــ كما انتهت ليال كثيرة ــ بالكلام ، وطارت كثير من الأحلام مع دخان السجائر .

* * *

عاد أحمد مع منال فى آخر السهرة . بينما يعبران كوبرى الجامعة بدت أضواء فندق شيراتون من بعيد . وضع يده فى يدها وسار صامتا ، كأنه مستلب الفكر . كان يرقب صيادا عجوزا فى قارب صيد ، وعينا منال مشدودتان إلى أضواء الفندق الملونة .

ــ هذا الصياد المسكين يتحدى الليل والعجز .

ــ كم يتكلف قضاء ليلة فى الفندق يا أحمد .؟

ــ الليلة طويلة جداً على هذا الصياد العجوز .

ــ ليلة الفرح ستكون ليلة عظيمة .

ــ متى يطلع النهار ويعود الصياد إلى الشاطئ .؟

ــ فى شهر العسل لن نفترق فى الليل أو النهار ، ولن أسمح لأحد بزيارتنا .

ــ لا أحد يفكر فى أحزان هذا الصياد العجوز .

ــ يبدو لى أحيانا أنك تسخر من أحلامى .

ــ أحلامى تتحقق عندما يتحرر كل شبر من الأرض العربية .. ويوم ترفرف راية الوحدة .!

ــ أرجو أن يطيل الله فى عمرك يا حبيبى .

أحس بانقباض وهو يبتعد عن أسوار الجامعة .

شىء ما يشده إلى أسوارها الشامخة ، إلى ذكريات الماضى وأحلام الشباب . ذهب الماضى لكن أين المستقبل ؟ الجو عليل والليل طويل . لم يلتفت إلى منال .. ولم يستطع أن يقول لها كلمة حب . نظر إليها ، وقد وضع يده فى يدها :

ــ زملاؤك ثرثارون بلا رؤية .

ــ قلوبهم بيضاء .. وأعصابهم متوتّرة .. لكن الضباب كثيف .

ــ لم لا يتركون السياسة لأصحابها ، ويفكر كل منهم فى حاله .؟

ــ إذا فكر كل واحد فى حاله فقولى على الدنيا السلام .!

ــ صرت واحداً منهم يا أحمد .

ــ هل يملك النهر تغييراً لمجراه ؟!

ــ لم أنت متشائم هكذا يا حبيبى ؟

ــ وما الذى يدعو إلى التفاؤل يا حبيبتى ؟!

ــ أنا يا أخى .. ألا تحس أنك ثقيل الدم ؟

اقتربتْ منه فوضع يده اليسرى على كتفها ، أحاطت خاصره بيمناها . قلّ عدد السائرين بشكل ملحوظ . رائحة العطر تفوح من رقبتها . بدرتْ منه التفاتة سريعة إلى كرمة ابن هانئ .. أوه يا أمير الشعراء ، الليل مظلم .. المحبوب بجوارى ، لا أستطيع أن أقول كِلمة .. كلمة حب . آه ... لو كنت معى .!!

ــ أصبحتُ لا أطيق البيت يا أحمد . ماذا أفعل خاصة بعد أن تسافر قريبا ؟

ــ آه نسيت .

ــ الآن فقط تذكرت ؟!

ــ سنذهب غداً لمقابلة عم أحد أصدقائى ، إنه رئيس شئون العاملين بشركة الأمل للمستحضرات الطبية .. سوف يجد لك عملًا بإذن الله .

ــ صحيح يا أحمد .. سوف أصبح موظفة ؟

ــ الصديق يقول إنها شركة كبيرة ، وتعطى بجوار المرتب المعقول حوافز وأجراً إضافيا .

ــ سأدخر كل ما أستلم ، وأنت أيضا ، إيّاك أن تضيّع النقود ، حضرة الصول عبد الله .. وحضرة الناظر يوسف أفندى لن يعطونا شيئا ، فاهم ،

لا بدّ أن نعتمد على أنفسنا .

ـــ ربنا يسهل .

ـــ لم لا تدعو بنفس مفتوحة ؟

خطف منها قبلة سريعة فابتسمت قائلة :

ـــ ألا تنوى إعلان الخطوبة قبل سفرك ؟

ـــ لا داعى للعجلة .

ـــ لا يا حبيبى .. « لا بد أن تكون هذه سنة الحسم » ..!!

ضحك فجأة ، لأن منال استخدمت جملة سمعتها الليلة . عظيم .. عظيم .. منال التى كان مثلها الأعلى صباح أو شادية أو على الأقل فاتن حمامة ، بدأت تستخدم تعبيرات سياسية . جلستان وسوف تصبح بنت نعيمة مناضلة من طراز فريد .!!

ـــ لا تدخل معى الحارة ..

ـــ الحارة الآن مثل أهل الكهف .

ـــ الشيخ شعبان يذاكر فى الشباك إلى مطلع الفجر .

ـــ أمرى إلى الله .

* * *

أخذ يتقلب فى السرير بلا جدوى . رأسه مثقل بالمشاغل وقلبه مليئ بالمشاعر . استيقظت فى ذاكرته المرهقة خواطر شتى . فى الليل تصحو الأحلام والأوهام . لم يعد قادرا على أن يتحمل . لقد صدق عادل ، نحن جيل ملعون .. ثورة ٢٣ يوليو العظيمة لم يبق منها سوى شارع صاخب فى وسط القاهرة . أحس حسرة شديدة حين تذكر منال . منال صارت

جزءاً من كيانه ، تحابا سنوات طويلة .. فى البداية بحجة الدرس الخصوصى ، شيئا فشيئا قرأ الجميع فى العيون ما تخفيه القلوب . هناك نية خطوبة بين الاثنين لم تفصح كلتا العائلتين عنها ، لكن الكل — حتى الأم التى كانت تحلم بزوجة غنية — رضيت ، واقتنعت بأن الأقربين أولى بالزواج . أصابته الشلة بعدوى الفكر السياسى ، منذ ذلك اليوم صار يرى الواقع بصورة مأوساوية . أين المهر .. والأثاث .. والشقة ؟ أبوه فقير .. وصهره كذلك ، وهو ما زال عاطلا .. وهى كذلك . والد أحد التلاميذ فى مدرسة أبيه توسط له حتى يعمل فى وزارة الصحة . استطاع ببعض الجهد أن يجعل العمل فى قرية والده . أوه يا منال .. لولا حبك لما فكرت فى الزواج الآن . ما زالت هناك فترة التجنيد . الطبيب والمهندس إذا جُندا فلا يعلم إلا الله متى سيسرحان !! رغم كل ذلك كان مسروراً لأن منال استلمت عملها فى الشركة ، وعادتْ سعيدة فرحة ، وطلبت من أمها أن توزع الشربات أيضا احتفالًا بهذا الحدث السعيد ، الذى انتظرته سنتيْن كاملتين .

تمنى أن ينام ، لكنه آثر أن ينتظر عودة أخَيه على شريكه فى الغرفة . بينهما نوع من التفاهم المشترك مع أن كلا منهما يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ، كأنهما لم يرضعا من ثدى واحد . أحمد مجتهد مهذب جاد فى حياته ، حتى فى العطلة لا يكف عن القراءة وزيارة القرية . أما على فيكره المذاكرة كراهية عمياء .. جرىء محب للحياة ، محترف مشاهدة الكورة والسينما والتليفزيون . يسخر من أخيه جدا حين يحدثه عن حبه الأفلاطونى لمنال :

ــ من غير المعقول أن ينظر الرجل إلى المرأة فى عصر الذرة نفس نظرة عصور الصيد والرعى . الدنيا تغيرت يا دكتور .!!

حسين أبيقورى النزعة يشتهى المادة ، ويحب الشرب والأكل ، ويدخن بشراهة .

ــ ماذا تنتظر يا حمادة من ضابط محكوم عليه بالعزل فى مركز الفشن ؟ أعيش حياة قاسية مع المجرمين والمنحرفين فلا بد أن أرفه عن نفسى وإلا أطق وأموت .

ــ عندما نلجأ إلى التبرير لن يخطئ أى واحد منا نفسه ، المهم حاول أن ترضى والدك لأنه غير راض .

* * *

دخل الوالد بجلبابه الفضفاض :

ــ ما زلتما ساهرين يا أحبائى ، أكيد على هو السبب ؟!

انتفضا وجلس كل منهما على سريره . وقف أحمد وطلب من والده الجلوس :

ــ كنت خارجا من الحمام سمعت صوتيكما ، فجئت للاطمئنان . هل تريدان عشاء .. أو شايا .؟

ــ لا يا بابا .. ألف شكر .

ــ قريبا يخلو البيت من أحمد بعد أن خلا من على .

ــ البركة فيك يا بابا .. دائماً عامر بحسّك .

ــ تصبحان على خير .

خرج الأب قبل أن تخنقه عبراتٌ ، هى مزيج من الحب والخوف ،

الفرحة والحزن . هل هذا الأب صورة نادرة أم أن كل الآباء كذلك ؟ تساءل أحمد فى نفسه . مدرس ابتدائى بسيط استطاع أن يربى طبيبا وضابط بوليس وطالبة فى كلية الآداب .. كيف ؟ قبل بعض الدروس الخصوصية حتى يحقق لأبنائه بعض ما حُرم منه . قاطع كل المعارف والأقارب حتى يخلو البيت للمذاكرة . أحيانا كثيرة يساعد الأم فى إعداد الطعام وإحضار لوازم البيت . فى موسم الامتحانات يعود مرهقا من الدروس ، لكنه لا ينام إلا بعد أن يحضر بعض الفاكهة وكوبا من الشاى . ويجلس بيننا محدثا فى ظرف عن بعض ما رأى أو سمع . حرم نفسه كثيراً من أجلنا . اختلف مع الأم مرة حين رفضت بيع مصاغها من أجل مصاريف على فى كلية الشرطة ، يومها قال مداعبا :

— يا أم حمادة ، أجمل زينة للمرأة نجاح أبنائها ..!!

وراء هذا الحنان المتدفق جموح على وفوضويته .. ماذا يستطيع ولدٌ مهما كان باراً أن يصنع لوالديْه ..؟!!

* * *

الفصـــل الثالث

دخلت أمينة ــ ثانية بنات الصول عبد الله ، حجرة الاستقبال ، وبدأت توزع الشربات على الحضور ، الأب والأم ومنال وأحمد وماجدة الأخت الصغرى :

ــ شربات النجاح للدكتور أحمد ، وشربات الوظيفة للآنسة ميمى ، وشربات النصر بإذن الله يا حضرة الصول .

قال أحمد : عقبى لك .

ــ النجاح أم الوظيفة ؟

ــ ماذا تريدين ؟

ــ العروس .

التفتت منال ناحية أبيها : لولا الدكتور أحمد يا بابا ما وصلت إلى هذه الوظيفة المحترمة .

ــ الواسطة كل شيء فى هذه الأيام .

قالت نعيمة : متى تستلم العمل يا أحمد يا ابنى .؟

ــ خلال شهر بإذن الله .

ــ إذن لم أنت ساكت ؟

ــ اسكتى يا أم ميمى .

ــ لا بد أن يعرف .. وأن نتفق ، حسنين ابن خالى ما زال منتظرا .

قال اصبروا حتى أنجح ، والحمد لله .. ماذا يريد بعد ؟

قال فى خجل : يمكن أن نقرأ الفاتحة فى السرّ ، لا أستطيع أن أحمّل أبى فوق ما يطيق .

انفجرت عاصفة : سر .. أى سر ؟ ابنتى البكرية ، وأقرأ فاتحتها فى السر .. لماذا يا حبيبى ؟ قل .. لماذا ..؟

قال الأب فى شفقة : نحن الآن أسرة واحدة ، النسب عصب يا بنى وأنا فى منزلة والدك .

ـــ نعم يا عمى .

ـــ ما رأيك لو أعطيتك على سبيل السلفة، نعم سلفة، أعطيك مائتى جنيه ، ثم تردها فيما بعد يا ابنى .

ـــ لا يا عمى .. مستحيل .. لا أظن أبى يوافق .

ـــ ومن سيقول له .؟

ـــ كرامتى لا تسمح بهذا .. أو ذاك .!!

* * *

جلس الصول عبد الله فى صالة البيت تائها بجسده النحيل فى بيجاما واسعة ، حتى الملابس لم تعد ملائمة . ثلاثون سنة تقريبا قضاها فى الجيش . قاتل مع جنود عبد القادر طه فى الفالوجا سنة ١٩٤٨ ضد اليهود ، واشترك فى معارك سيناء وبور سعيد سنة ١٩٥٦ ، ثم هرب مع من هرب من سيناء فى حرب ١٩٦٧ . فى الطريق كاد يقع أسيرا ، لكن الله سلم .. لولا عناية الله أيضا لأصابته طلقات طائشة من طائرة تمطر موتا أسود ، وهو على أبواب بور توفيق ..

كان يعمل صول تعليم فى أحد معسكرات المشاة . كم تمنى أن يعلق نجمة على كتفه . ضابط المعسكر أخبره أن حلمه سيتحقق فى عيد الثورة القادم . كل هذه النكسة وما زالوا يقولون ثورة مجيدة . كان يتمنى أن تخطب منال حتى تفتح الطريق لأختيها . أبو البنات دائما مشغول البال . تمنى أن يحيل نفسه إلى الاستيداع ، لأنه لم يعد قادرا على تحمل الجهد . لكن الفرق الواضح بين المرتب والمعاش جعله يؤجل قراره . تعب من الحروب .. والعمل المرهق فى المعسكر .. ومن غلاء المعيشة .. ومن التفكير فى مستقبل البنات . نعيمة كانت قادرة على تحمل مسئولية البنات عندما كن صغارا ، أما اليوم فمنال موظفة والحمد لله ، وأمينة فى كلية الآداب ، وماجدة فى الثانوية العامة . ثلاث بنات .. أو ثلاث مشكلات ، عليه ـــ وحده ـــ أن يرعاهن .. ويطعمهن .. ويزوجهن . كان الله فى العون يا نعيمة .

ـــ بسم الله الحفيظ .. مالك مهموم هكذا يا رجل ؟

ـــ شغل المعسكر أصبح كثيرا ، ولم أعد أتحمّل .

ـــ لماذا كفاك الله الشر ؟

ـــ الحرب آتية .. والعمل كثير .

ـــ يا رجل .. طول عمرك وأنت جمل ، قم نحضر العشاء سويا .

ـــ ميمى لم تأت بعد ؟

ـــ إنها مبسوطة فى عملها .. وسيارة المدير توصلها عندما تتأخر ، استعذ بالله من الشيطان .

* * *

مصطفى بركة مدير الشركة ، يجلس مسرورا خلف مكتبه ، ومعه الأستاذ فؤاد رئيس شئون العاملين .

ــ كنت موفقا حين اخترت هذه الموظفة الجديدة ، قلت لى اسمها ..؟

ــ منال يا سيادة المدير .

ــ كنت أكثر توفيقا حين جعلتها سكرتيرة مكتبى .

ــ أرجو أن أنال رضاك فقط يا سيادة المدير .

ــ إنها موظفة رائعة وأكثر من ممتازة . تصور يا أستاذ لقد غيرت الحجرة من الألف إلى الياء : الستائر ، أماكن الكراسى ، آنية الورد ، طفايات السجائر ، اللوحات .. المكتب ــ مكتب سيادة المدير العام غيرت مكانه ، ليكون بعيداً عن الباب ، تصور حتى أكواب المياه وفناجين الشاى والقهوة . لكن قل لى .. من أى كلية تخرجت هذه الفتاة .؟

ــ لا كلية .. ولا معهد يا سيادة المدير . دبلوم تجارة ، مجرد دبلوم فقط لا غير .!

ــ هل عملت من قبل فى أية شركة ؟

ــ لا أعتقد .. إنها فتاة فقيرة ، لكن يبدو أنها من أصل طيب .

ضغط على الجرس ، فدخلت منال تختال فى بلوزة بيضاء وجونلة ميكروجيب كاروهات بنية الخطوط . شعرها يتدلّى ذيل حصان خلف رقبتها الرشيقة . تبدو كما لو كانتْ ذاهبة إلى حفلة سينما وليس إلى مقر عمل .

ــ تريد شيئا يا سيادة المدير .؟

ــ أردت أن أشكرك أمام الأستاذ فؤاد .

— فى الحقيقة الشكر يجب أن يوجه له هو .

— العفو يا منال يا ابنتى ، أنت رفعت رأسى عند سيادة المدير ، لأنه حازم جدا فى العمل ، وملتزم ودقيق ، ولا يقول شيئا إلا لمن يستحق .

— هل صرفت منال ثمن المشتريات يا أستاذ ؟

— لست أدرى .. نعم يا منال ، هل صرفت ثمن هذه الأشياء ؟

— لا يا أستاذ فؤاد .

— إذن من أين لك هذه النقود التى صرفتها .؟

— أقول دون زعل .. (وهى تبتسم) استلفتها من أمى .

— أرأيت كيف يتصرف الموظف الكفء .؟!

— أين الفواتير ؟

— ليس المهم هو الفواتير والمستندات ، المهم أن تكون الحجرة جديرة بسيادة المدير .. آسفة أقصد المدير العام يا مصطفى بيه .!

تبادل الرجلان نظرة إعجاب ، بينما المدير ينعم النظر إلى زينتها الواضحة وملابسها الأنيقة وهدوئها المتكبّر .

— على أى درجة عينت المدموازيل ؟

— الثامنة الكتابية حسب اللوائح يا أفندم .

— مزّق لوائحك البالية ، وعيّنها على الدرجة السابعة الفنية ، واكتب اسمها فى كشوف الأجر الإضافى .

— أمرك يا سيادة المدير .

— مبسوطة يا حلوة !؟

أحس أنه تسرع فى وصفها بكلمة « حلوة » ، فأردف :

كله من أجل الأستاذ فؤاد ، فأنت من طرفه . على كلٍ .. اصرف لها كل ما دفعته ، وإياك أن تنسى بدل المواصلات .

بدأت منال تمارس عملها الجديد بمهارة وكفاءة ، أقرب إلى التحدى .. تحدى الذات والقدرات من أجل إثبات الوجود . كانت مثل أسير يمارس الحرية لأول مرة . أحس زوّار المدير بتغير أقرب إلى الانقلاب . لم يكن الذى تغير هو أثاث المكتب ونظامه فحسب ، بل إن مدير المكتب نفسه ــ المهندس الكيميائى مصطفى بركة ــ أصبح خفيف الظل ، يحرص على أناقته ، مرحباً بزوّاره ، كما أنه صار ينهى مقابلاته ــ حتى بأصدقائه ــ سريعاً ، بحجة عدم إضاعة الوقت فيما لا فائدة منه .

* * *

حسنين حامد الابن الوحيد لعامل زراعى ، توسم فى ولده الأمل ، فأدخله الكتّاب ثم المدرسة ، لكنه كان عصيّ الحفظ والفهم . حسم موت الأب إخفاقه فى التعليم ، فتحول إلى العمل اليدوى . من عجب أنه صار ميكانيكيا ممتازا ، وأصبح يدعى الباشمهندس . فى الورشة تخصص فى إصلاح سيارات المرسيدس . « الأسطى حسنين ولد كسيب » ، كما تقول عنه ابنة خاله ــ السيدة نعيمة أم ميمى . زارها فى البداية بحجة أنها قريبته الوحيدة فى المدينة الكبيرة . كثيرا ما كان يتناول عندها الغذاء يوم الجمعة .. يوم العطلة . شيئا فشيئا بدأ يحس بألفة شديدة نحو قريبته وزوجها وبناتها . منّى نفسه كثيرا بزواج منال ، وشجعته الأم أحيانا بحجة أن الرجل لا يعيبه سوى جيبه ، وما دام الجيب عامراً بفضل

الله ، وفضل القطط السمان ـ أصحاب المرسيدس ـ فهو زوج مناسب . حين عرفت منال ذلك أصبحت تنفر منه نفور السليم من الأجرب . كلما ازدادت بُعداً وجفاءً اشتدّ ميله وهيامه ، فهى ما زالت كما تقول الأم : طفلة لا تعرف مصلحتها .!

استمر الحال هكذا مع حسنين خلال سنتين ، كانت ميمى فيهما قد أنهت الدراسة ، وقعدت تنتظر وظيفة عن طريق « القوى العاملة » . أدركت الأم بحاستها النسائية أن منال على علاقة بأحمد ، فأعجبت بطموح ابنتها البكر . لكنها لم تشأ أن تقطع خيوط الأمل عند حسنين ، بحجة أن هناك بنتيْن أخريْن .. فلم لا يبقى على قائمة الانتظار ، خاصة وأنه يصعب على البيت كله أن يحرم من هداياه الفخيمة ، مثل الكباب والكفتة ، الجمبرى المقلى المعتبر ، الملابس ، العطور ، الفواكه التى تأتى أحيانا فى غير موعدها ؟ أحيانا يحضر بعض زجاجات البيرة ، ويجلس مع حضرة الصول فى حجرة مغلقة يحتسيان ، ويدخنان سجائر « محشوة » بالحشيش .

ـ أريد أن تستخرج لى شهادة معاملة يا حضرة الصول .. لا مؤاخذة أريد أن أقول يا عم عبد الله .

ـ لماذا يا باشمهندس .؟

ـ قررت السفر إلى قطر .

ـ قرار غريب والله يا قريبى .

ـ ما غريب إلا الشيطان ، كلنا عرب وموحدون بالله . الرزق ضاق علينا . الحرب والنكسة جعلا الحياة مرّة .

— يا ابنى لا يوجد بلاد تضيق بأهلها .

— لا يا عمى .. لقد ضاقت وضاقت ، أنا أعمل فى السوق ، والسوق هذه الأيام بائر وخربان . كل ما أكسبه يضيع بسبب الغلاء . تصوّر يا عمى أنا أستدين أحيانا لأرسل نقوداً إلى أمى .؟!

— وبالوالدين إحساناً يا بنى .

— عمرى الآن سبع وعشرون سنة ، متى أستطيع أن أتزوج . كيف أطلب يد فتاة من أبيها ، ولا أملك مهرها .. ولا يوجد عندى شقة أسكن فيها ؟

— هكذا أنتم يا شباب دائما متعجلون .

— ما علينا .. المهم .. ما رأيك ؟

— فيم ؟

— أخطب منال قبل سفرى .

— سافر فى أمان الله .. وعندما تعود يحلّها الكريم .

حسنين — قبل أن ينجح أحمد .. وتتوظف منال — طار بعيداً ، ومعه بعض آمال عريضة .

* * *

بيت الحاج عوضين أبو عوف يشكل مثالا « للحراك الاجتماعى » فى مصر بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وسكانه يعكسون نماذج مختلفة لصراع البرجوازى الصغير من أجل مستوى اجتماعى أفضل . انتقل سكانه جميعا من قرية كفر بدواى مركز المنصورة ، وعاشوا فى هذا البيت النامى . الحاج عوضين المتولى صاحب البيت .. وصاحب الدكان

الوحيد فى حارة المدرسة ، يبيع بعض أصناف البقالة والعطارة ويصرف التموين الشهرى . دكان « أبناء المنصورة » مصلحة استعلامات شعبية ، يوجد به تليفون يعده كل واحد من أبناء الحارة تليفونه الخاص ، يتلقون فيه مكالمات العمل .. ونعى الوفاة .. وأحيانا بعض الشئون العاطفية .

الحاج عوضين فى بداية حياته كان عاملا زراعيا ، بعد أن أنهى مرحلة التجنيد فى قوات « الجيش المرابط » ـــ التى كانت فى منزلة وسطى بين الجيش والشرطة ـــ ارتبط بالمدينة . عمل صبى بقال عند تاجر ميسور صار فيما بعد صهره ، وتزوج ابنته فتحية ـــ أم شعبان . الرسول عليه السلام يقول « تسعة أعشار الرزق فى التجارة » ، وأبناء البلد يقولون « التجارة شطارة » . فتح الله عليه فبنى الدور الأول ، ثم دورين بعد ذلك . الفتح العظيم ـــ الذى يحمد الله عليه فى السرّ والعلن ـــ هو أن زوجته أنجبت له خمسة أولاد ذكور . « الولد وتد » ، هكذا كانت تقول أمه ـــ رحمها الله . جلس ذات يوم يتناول طعام الغذاء مع أسرته السعيدة :

ـــ خرجتُ من القرية ـــ كما يخرج الوليد من بطن أمه ، بفضل الله ، وبفضل هذا ـــ يشير إلى ذراعه الأيمن ـــ استطعت أن أبنى البيت وأؤسس الدكان ، وأعلمكم فى المدارس والجامعة ، وأؤمن مستقبلكم ضد الفقر ، الذى رأيته بعينى سنوات طويلة .

نظرت إليه فتحية مبتسمة ، وهى تعطيه قطعة لحم من صدر الدجاجة : لولا أبى ـــ الله يرحمه ـــ ما كان وراءك شىء ولا قدامك .!!

ـــ لم لا تقولين لولا اجتهادى واستقامتى .؟

قال شعبان مختالا بوالده : « إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا »

يا بابا ..!!

ـ الدنيا يا شعبان يا ابنى سوق كبير ، إما أن تكسب أو تخسر ، لا يوجد حال وسط . من يكسب السوق يكسب الناس ، ومن يخسر السوق يخسر كل شيء .!

وزعت أم شعبان الشاى على الأسرة ، ووضعت الصينية على كرسى قريب ، وقالت :

ـ تصور يا أبا شعبان ، أم منال تريد أن تبنى عشة فراخ فوق السطح . ألا يكفي أنها تسكن فى الشقة بملاليم ؟ نلمهم من الشارع وبعد ذلك يعكرون صفو حياتنا . سنين وسنين تعيش فى المدينة ، لكنها فلاحة وبنت فلاحة . صدق من قال « الفلاح فلاح،ولو أكل التفاح » .

ـ اتق الله يا امرأة . ثم لا تنسى أنها قريبتى .

ـ قريبتك أم عروسك القديمة يا روحى . أنت السبب . كل شقة نبنيها ، يسكن فيها واحد من أبناء البلد ، بحجة أنهم أقارب ، ثم نكتشف أنهم عقارب .

قال شعبان : أبى عنده حق يا أمى ، فالرسول عليه السلام يقول : « خيركم خيركم لأهله » .

شعبان دائما مستعد للدفاع عن السكان .. أجمعين ، من أجل منال ـ حلم الصبا والشباب ـ ومن أجل الورد يُسقى العُلّيق ..!

اغتاظت الزوجة وقد وجدت نفسها وحيدة :

ـ هيا إلى المذاكرة ، لا تضيّعوا الوقت . وأنت يا رجل قم وافتحْ دكانك،أم أنك تريد أن تعمل « خوجة » للأولاد .

* * *

قال محمدٌ هو ابنُ مالكِ　　أحمدُ ربّي خيرَ مالكِ
إنْ عاملان اقتضيا فى اسمٍ عَملْ　　قبلُ فللواحدِ منهما العملْ
والثانى أولى عندَ أهلِ البصرةْ　　واختار عكساً غيرُهم ذا أسْرةْ

التنازعُ فى عمل الفعل عبارة عن توجه عاملين إلى معمول واحد ، نحو : « ضربتُ وأكرمتُ زيداً » « فكل واحدٍ من الفعليْن ضربتُ » و « أكرمتُ » يطلب « زيداً » بالمفعولية ؛ أى أن الفعلين يتنازعان مفعولًا واحداً ، ولا خلاف بين النحويين البصريين والكوفيين أنه يجوز إعمال كل واحد من العاملين فى ذلك الاسم الظاهر ، لكنهم اختلفوا فى الأولى منهما ، فذهب البصريون إلى أن الفعل الثانى أولى به لقربه منه ، وذهب الكوفيون إلى أن الأول أولى به لتقدّمه . وهذا ما يُسميه النحويون « التنازع فى العمل » ....

قطع استرساله فى المذاكرة بصوت مسموع ، وقد انتهز وجوده — وحيداً — بعد نوم أسرته .

— مساء الخير يا شعبان .

— أهلا يا أستاذ ... ما هذا التنازل العظيم ؟ قلبىَ يحدثنى أنك تعنى — مثل معظم الروائيين — بالشخصيات المأزومة ، أما الأسوياء — أمثالى بلا فخر والحمد لله — فلا تهتم بهم .

— الصراع أساس الوجود ، وليس هناك إنسان بلا دور فى الحياة .. وبالتالى فى الأدب . والكاتب الواعى يزن مقدار كل شىء فى عمله بميزان الذهب ، لا ميزان القطن .. أو التراب .

— هذا كلام نظرى جيد ، تستطيع أن تقوله لصحفى ناشئ .. أو فى

سهرة تليفزيونية ، وتبتسم وأنت تجيب عن هذا السؤال ، وتتجهم وأنت تجيب عن سؤال آخر ، كأنك كتبت عملك بلا وعى ، فيزداد بعض البلهاء إيماناً بأنك كاتب نحرير .!!

ــ ما زال فيك شيء من حدة الشباب ، فى الحقيقة ما أريد إثباته هو ما تنكره علىّ . لكن ما أود مناقشتك فيه، هو موقفك العدائى من أحمد ومحاولة فرض حبك على منال .

ــ إننى رغم دراستى النظرية فى كلية اللغة العربية إلا أننى شاب عملى .

ــ عظيم .. كيف ؟

ــ نحن جميعا : أحمد ومنال وأنا ــ من قرية واحدة .. ومن وسط اجتماعى وثقافى متقارب . أحمد ــ كما تزعم ــ يدّعى أنه يحب منال ، لكنه حتى الآن لم يتقدم لخطبتها . وإذا كان من حقه أن يراها زوجة صالحةله، فهذا من حقى أيضا ...

ــ ولكن يا شعبان ...

ــ أعطنى فرصة لأثبت لك أن ابن التاجر، سوف ينتصر على ابن الموظف . ألم تسمعنى أقرأ فى « موضوع التنازع » .

ــ اقتربنا جداً من جوهر الموضوع .

ــ إذن ليس هناك رأى واحد فى أية قضية ،ولكل رأى مضاد ما يبرره .. وعندى ما يبرر تمسكى بمنال .

ــ لا إكراه فى الحبّ يا شيخ شعبان .

ــ ألا ترى أنك جئت إلىّ فى عقر دارى لتهاجمنى ، أردت أن تثبت الحياد ، لكنك لا تفعل ذلك .. ولا تقدر عليه .

ــ على كل حال أرجو أن توسع مجال الرؤية ، وسوف تكتشف فى الدنيا حقائق ، يصعب الإقناع بها شفويا ..!

* * *

الفصل الرابع

مصطفى بركة ـ مدير شركة الأمل للمستحضرات الطبية ـ رجل يعيش هدوء الخريف ، عمره ست وخمسون سنة ، شاهد جميع فصول العمر . يعيش حياة مستقرة بعد أن كبر ولداه : حميدة وحمدى . حميدة تزوجت بعد الجامعة من رجل فى السلك الدبلوماسى ، ورحلت معه إلى اليونان ، وحمدى يعمل مهندس ديكور بالتليفزيون . مصطفى تزوج فى بدء حياته الوظيفية من إحدى قريباته لأمه ، كانت تحمل بعض دماء تركية ، وتعد مثالا جيداً لانعدام الصلة بين الشكل والمضمون ، فهى جميلة أنيقة .. حريصة على المظهر والتناسق بين الألوان وحب النظام ، لكنها ذات رغبة شديدة فى التمتع بالحياة والرحلة وتدمير المال ، مع ميل واضح إلى التكاسل فى أداء أى عمل ، وسرعة الغضب والانفعال . عاش معها خمس سنوات ، ثم اكتشف فى النهاية أنها لا تتغير مع الزمان .. ولا يؤثر فى سلوكها وجود الأطفال . الخسارة القريبة خير من المكسب البعيد . طلقها واستراح .. من حسن الحظ لم تكن حريصة على حضانة الأطفال . شريفة الخادمة ترعى البيت رعاية تامة .. وما زالت حتى اليوم تمارس دورها البيتى بأمانة وكفاءة ، رغم أنها كبرت شيئا ما .

أعطى مصطفى حياته كلها للعمل . فى شهور الصيف يكثر من الرحلات الداخلية والخارجية تعويضا عن لحظات الفراغ الروحى

والعاطفى التى يعيشها . أصبح صاحب خبرة عريضة فى الحياة .. والعمل .. والحب .. والثقافة بمعناها الشامل . لا يتكلم فى السياسة ، ولا يطيق النقاش فيها ، بحجة أن السياسة عالم يحتاج إلى تفرغ ودراسة ، كثيرا ما تمثل قول القائل « لعن الله ساس ويسوس وسياسة » .الأمر الآخر — الذى يرفض الحوار فيه — هو النميمة وأكل لحم البشر ، حتى ابنه حمدى لا يسأله عن شيء من شئونه الخاصة .. ويكتفى بمقابلته مرة فى الأسبوع للاطمئنان عليه .

أفاق المدير من تأملاته وشطحاته على صوت منال فى التليفون : مدام حنان تريد مقابلة سيادتك .

— دعيها تدخل .

ليس من عادة منال أن تدخل مع أحد الزوار أو العاملين إلا إذا كانت هناك ضرورة . شيء ما دفعها إلى مصاحبة المرأة . تفحصت المدير من رأسه إلى أخمص قدمه . أعجبت بذوقه الملفت فى اللون الأزرق — الذى يعدّ الطابع الغالب على البدلة والقميص والكرافتة والحزام .. والحذاء . نقلت نظرات سريعة وقلقة بين المدير وضيفته ، التى تبدو سيدة بيت عاطلة .. وزينتها تدل على أن الزيارة زيارة ودية ، وليست زيارة عمل .

— تأمر بأى خدمة يا سيادة المدير ؟

— قهوتك يا حنان هانم ؟

— مضبوطة .. (تأملت الفتاة من فوق إلى تحت) مضبوطة يا شاطره ..!!

المرأة امرأة على أى حال تكون . أدرك المدير مدي حساسية

الموقف . إذا حدث ماس كهربائى ، فلا بد من فصل الأسلاك قبل أن يشتعل الحريق ..!!

ــ آنسة منال بعد أن تأمرى بالقهوة ، اذهبى إلى مكتب الأستاذ فؤاد فوراً ، وجهزى معه كل الأوراق الخاصة باستيراد صفقة السلفا والبنسلين .

أدركت بالحاسة السادسة أن هذه دعوة للتزحلق . نظرت إلى المرأة نظرة شك ، وإلى المدير نظرة غيظ مكتوم .!!

ــ أوه .. نسيت ، مدام حنان ابنة خالى ، الآنسة منال أكفأ سكرتيرة فى الشركة .

ــ ذوقك دائماً حلو يا صافى .. (ابتسمت) يا ابن خالتى .!!

* * *

أول يوم نزل فيه الدكتور أحمد إلى القرية أحس أن الهواء نقى بدرجة لم يعهدها . استقبله زميل قديم فى المستشفى هو الدكتور صادق سليمان . فى المساء جمعتهما الاستراحة المجاورة للمستشفى :

ــ القرية يا دكتور أحمد عالم غريب ، حاول أن تتعرف عليه ببطء وهدوء . اسمع ولا تتكلم . إياك أن تتبسط فى الكلام ، الطبيب الناجح يعامل الناس على أنهم مرضى .!!

ــ لا أظن ذلك .

ــ على كل حال سوف تريحنى كثيرا ، وإذا أردت نصيحتى فى شىء فلن أبخل بها ، تصبح على خير .

تمنى أن يزور بعض الأقارب والمعارف ، لكنه آثر الوحدة . بدأ الليل

يمدّ ذراعيه على الأفق . غاب القمر وطال الليل . فى السرير كان القلق شريكه . استيقظت فى داخله الأشواق ، تذكر أسرته .. ومنال وأصدقاء الدراسة .. وشوارع الجيزة .. وحجرة نومه . حاول أن ينام بلا جدوى . صورة منال متسلطة على ذهنه المرهق . شق صمت الظلام صوت الشيخ حسن المطمطم :

مددْ مددْ يا شيــــخ جُوده   القطــن كلتــه الــــدُوده
البنــاتْ عايــزه تتجــوّزْ   والجدعــان نفسهــا مَسْدُوده
مدد مدد يا شيخ جوده

أخرج رواية « المسيح يُصلب من جديد » .. وأخذ يقرأ هذه الفقرة من حوار الأب فوتيس :

« أيتها الصخرة الشمّاء ، يا ابنة الإلٰه القوى القدير . أيتها المياه الجارية أبدا ، تتفجر من بين الصخر لتطفىء ظمأ الطير والجوارح . أيتها النار الكامنة فى باطن الشجر ، تنتظر الإنسان حتى يوقظها من مكمنها ، فتكون له عونا فى حياته .. نحن بشر يطاردنا إخوة لنا . نفوس فظة قاسية ، وأخرى تثقلها الأحزان . أيتها الطيور والجوارح نسألكم أن تحسنوا لقاءنا . لقد أتينا إلى هنا بعظام الأجداد ، وعدة العمل وبذرة الإنسان ، ادعوا باسم الرب أن تجد سلالتنا مستقراً بين هذه الصخور والقفار » .

أوه .. نيقوس كازنتزاكس ، أنا وأنت غريبان هنا . كل منا يحاول البحث عن يهوذا .. الذى يقتل الخير ، ويصلب الحق ، ويشوه الجمال .!! أسطورة الكون

الجديدة القديمة .. يهوذا والمسيح . ابحث لك عن دور فى الحياة لتكون يهوذا أو المسيح . ليس ثمة حل وسط .. فتخيّر رداءك لتلعب دورك ، تخيّر رداءك .. تخير رداءك ، فالدنيا ليل والفجر بعيد . تخيل الطوفان .. وسفينة نوح .

أخذ ينادى فى أعماقه : منال .. منال .. منال .. ضاع صوته فى الجهات الأربع . لم يدر هل كان حلما أم كابوسا .. أم رؤية عاشق .؟!

* * *

جلست آمال أخت أحمد .. مع أمينة شقيقة منال ، فهما متقاربتان فى السن والدراسة . آمال ثانية قسم فلسفة .. وأمينة سنة أولى قسم تاريخ . كانت الأختان رسولى الغرام بين أحمد ومنال ، لا يزال الأمل يراودهما فى أن تثمر شجرة الحب التى زرعاها ، ليفرحا بالعروسين ، ويكون عليهما الدور فى الفرحة .. والحب .. والسعادة .

ــ أين منال يا أمونة .؟ أصبحت لا أراها مطلقا .

ــ مسكينة .. العمل يستغرق كل وقتها .

ــ بدرجة لا ترد فيها على خطابات أحمد .!!

ــ هل اشتكى لك ؟

ــ بكل أسف .

ــ الحب الذى بينهما لا يوصف .

ــ البعيد عن العين بعيد عن القلب .!

ــ مستحيل .. لا يمكن ، لا تظلمى منال ، قلبها أبيض ، أعرفها جيدا .

سرحا مع الذكريات الحلوة التى عاشاها مع الحبيبين ، هل يمكن أن يصبح الدم ماء .. والحب مجرد ذكرى ؟

ــ حين ترينها اطلبى منها أن تكتب رسالة لأحمد .. إياك أن تنسى.!!

ــ إن شاء الله .. أريد أن أعرف رأيك .

ــ خيراً .. فيم ؟

ــ لقد فجعت فى الجامعة .. كنت أظنها عالماً آخر .

ــ يا شقية ، الجامعة ليست نادياً لممارسة الحب .

ــ لا تسيئى فهمى .. فقد دخلت الجامعة بلا هدف محدد ، ثم أدخلونى قسم التاريخ دون رغبة أو رفض .

ــ لكنك قبلت فى النهاية .

ــ ليس فى هذه الجامعة ما كنت أحلم به .

ــ هناك فارق كبير بين الحلم والواقع .

ــ أحس أن قسم التاريخ يسير بلا تاريخ .!!

ــ للأسف .. هذه نفس ملاحظتى .

ــ وهى ؟

ــ أن قسم الفلسفة أصبح بلا فلاسفة .!!

ــ لكن شعبان منبهر جداً بالجامعة .

ــ لم يقنعنى شعبان هذا بشىء ما منذ رأيته .

* * *

اجتمع الرجال الثلاثة .. أمام دكان الحاج عوضين ، فهذه جلستهم المفضلة مساء كل خميس ، يشربون الشاى ، ويتناقلون أخبار القرية ،

ويتحدثون .

قال الحاج عوضين : أوشكت أغلق الدكان . المواد التموينية غير متوفرة ، والغلاء هجم على كل شىء .

ـ هذه ظروف استثنائية يا حاج .. وإن شاء الله سوف تنصلح الأحوال .

قال الأستاذ يوسف .

رد الصول عبد الله : عندنا طوارئ عالية فى الجيش ، والاستعدادات مستمرة ، لكن المشكلة فى السلاح .

ـ ألم أقل لكما إن الحالة لا تُطمئن .؟

ـ الروس لا يثقون فى السادات .. والأمريكان لم يقتنعوا به بعد .

ـ ولم لا نتحالف مع إخوتنا العرب ؟

ـ هناك تقارب الآن بين الرياض والقاهرة .. أرجو أن يسفر عن شىء فى القريب .

ـ كل جنود الجيش الآن من حملة المؤهلات ، المهم هو السلاح ، وسوف يحققون معجزة .

ـ ظلال النكسة سودت كل مجالات الحياة ، ولكن ....

ـ ولكن ماذا يا أستاذ يوسف ؟

ـ عندى أمل فى أن الله سوف يكشف الغمّة .

* * *

جلس أحمد فى المساء يقرأ الجريدة .. أثارت الأخبار المتقابلة شجونه . البلاد فى حالة اللا سلم واللا حرب ، وهو أيضا فى حالة

اللا حب واللا كره . مصر أم الدنيا ، هل تستطيع أن تهد خط بارليف . الأوغاد ظنوا أنهم حققوا الوهم الكبير .. « دولة إسرائيل من الفرات إلى النيل » ... رمسيس الذى طرد اليهود من مصر ، لم يزل تمثاله موجودا .. ومصر ما زالت قادرة على إنجاب رمسيس ثان .. وثالث .. ورابع ... سمع صوت الشيخ حسن :

يا تاجر الودّ ، هو الودّ شجرهُ قَلّ
ولّا سَواقى الوِداد نزحتْ وماءها قَلّ
أيام بنشربْ عسل وأيام بنشربْ خلّ
وأيّام ننامْ ع الحرِير وأيامْ نِنام فى الطلّ
وأيام بتيجى على وِلاد الأصُول تِنْذلّ

الشيخ حسن المطمطم معلم من معالم قرية كفر بدواى، وشاهد على كل ما مر بها بعد ثورة سنة ١٩١٩ . يعرفه الأجداد .. والآباء .. والأبناء . الكل يعرف أنه ليس من القرية ، لكنه صار واحداً منها ، يدخل على أى مجلس .. حتى مجالس النساء . يقول ما يريد دون أن يناقشه أى فرد ، حتى العمدة .. نادى عليه أحمد ، لكنه أصرّ على ألا يسمع .

ــ تعشيت يا شيخ حسن ؟

ــ العبدُ لا يسأل عبدا .

ــ تشرب شايا ؟

ــ أريد سيجارة ..!

نادى عبد السميع الخفير .. فأعطاه السيجارة ، وأشعلها له . أحس المجذوب بنشوة ، فاقترب وجلس على الأرض :

ـ أنت من البلد أم غريب ؟

ـ كلنا غرباء .. لقد جئت إلى هنا بصحبة ولىّ الله الشيخ عبد الله النديم . طالت رحلته .. لكنه قال لى بعظمة لسانه : سوف أعود ، وآخذك معى لمقابلة عرابى . لماذا طالت غيبته يا بنى ؟

لم يستطع أن يرد عليه . لم يكن قادرا على فهم ما يقول ، فكيف يستطيع أن يرد ؟! نظر إليه وقد طالت لحيته حتى اختلطت بشعر صدره الأبيض . طال الصمت .. وغاب كل منهما فى عالمه الخاص . بعد برهة خرج الشيخ وابتلعه الظلام ، فهو يدخل .. ويخرج عندما يريد .. وليس لأحد عليه سلطان .

دخل إلى الفراش يبحث عن الهدوء والأمان ، لكن شبح منال طفق يطارده . حاول أن يلتمس لها عذراً فلم يجد . سيطر عليها الملل عندما كانت عاطلة ، أما اليوم فقد بذل جهده ، حتى بحث لها عن هذه الوظيفة ، التى تقول إنها سعيدة بها . مرت بخاطره فكرة غريبة هل ستكون الوظيفة الجديدة التى أوصلها بيده إليها هى الطوفان ، الذى يبتلعها ويجرفها عبر أمواجه المتلاطمة . مستحيل أن تسىء منال إليه ، إنها هى التى أحبته فى البداية ، وشاغلته حتى شُغل بها . هى دائما البادية .. والراغبة .. والطالبة .. كيف تحولت بهذه السرعة .؟ لماذا لا ترد على خطاباته .؟! هل انتهز شعبان فرصة غيابه وعاد لمعاكستها ..؟ هل رجع قريبها حسنين من الخارج حاملًا بعض لآلئ الخليج ودولاراته لينتزعها منه ؟! ماذا تفعل الآن فى الشركة ، هل وجدت شخصا أفضل منه ؟ مستحيل .. مستحيل ..! تذكر ليلة نجاحها فى الدبلوم .. كانت ليلة البداية الحقيقية

للحب : أخذها إلى كازينو المقطم .. ورقص معها . أول مرة .. أول مرة .. يخرج .. ويرقص . ويحب . ماذا تصنع المرأة فى الرجل على وجه التحديد ؟ المرأة حين تحب تصبح مخلوقا من جنس آخر . أوه يا منال .. الحياة الحب .. والحب الحياة . كل شىء باطل وقبض الريح .. إلا الحب . الرجل بدون امرأة لا شىء .. لا شىء على الإطلاق . رقص بفرحة طفل يمارس الحياة لأول مرة . منال هذه فتاة رائعة .. لا إنها أعجوبة . لم يكن يدرك أنها موهوبة بالسليقة .. إنها تسقيه من يدها حبا .. ومن عينيها .. ومن بسمتها .. ومن روحها .. عسل يا حبيبتى عسل .. عسل أبيض .!!

حين خرج معها إلى شوارع المقطم كان القمر يبسط ظله على الكون . سارا متجاورين كأنهما كائن واحد . أحس عطرها يخترق عظامه .. وروحها تحتويه ، أوقفها فى ظل شجرة . ونظر فى عينيها . مال إليها ومالت إليه ، والتقت الشفاه فى قبلة لا يعرف مداها .. ولا قدر عذوبتها . قال هامساً :

ــ أحبك .. أحبك يا منال .. أتمنى أن تسعنى الدنيا كلها .

ــ إلا أمى يا حبيبى ..؟!

فتاتى المحبوبة نوع خاص من بنات حواء . تجمع كل تناقضات الوجود . فيها شىء من الملائكة والشياطين .. والبشر والحيوانات . مزيج غريب ومدهش .. لكنى أهواه .. أحبه .. أنسى معه كل شىء .. إلا أننى مع محبوبة نادرة ، ذات جمال باهر وروح سامية ، أحس معها دائما أنى أتعلم السباحة فى بحر لجىّ .. متلاطم الأمواج .!!

أفاق من شطحاته على خطوات زميله الدكتور صادق . يعلم من أين

جاء فى هذه الساعة المتأخرة ؟ إنه مستعد لعمل أى شىء من أجل المال . أجرى عملية إجهاض فى الظلام وقبض الثمن ، وجاء كأنه لم يرتكب إثما .. أو خطأ . اعتدل على السرير ، وقال له :

ـــ دكتور صادق .. أرجو أن تعدنى بشىء .

ـــ ما هو ؟

ـــ أن تكون هذه آخر مرة .

ـــ كنت مستريحاً قبل أن تأتى . (متجهماً) لم أرسلوك إلىّ ؟

ـــ لا تغيّر موضوع الحديث .. أرجو أن تحترم شرف المهنة .. وتفى للقسم الذى حلفته .

ـــ اسمع يا دكتور أحمد .. الإنسانية .. الرحمة .. شرف المهنة .. الأمانة .. النزاهة .. هذه معانى جميلة ، تقرأ عنها فى الأشعار والروايات والكتب ، التى خربت رأسك . أفق يا دكتور ، حاول أن تعرف الحقيقة . !!

ـــ أية حقيقة ؟

ـــ حقيقة أننا هنا فى الريف مع الطين والروث ، والبهائم والحمير ، والفقر والجهل . بالله عليك هل تستطيع بهذه الإنسانية الحالمة أن توفّر مهر منال وتجهّز لها شقة ؟ كان الله فى عونها لم أحبت شابا ضائعا مثلك ؟!

ـــ أسمع يا دكتور ، أنت بهذه الطريقة تزيّف كل الحقائق . أرجوك لا تتدخل فى حياتى الشخصية . أنا أناقشك فى العمل ، العمل الذى هو مسئوليتى ومسئوليتك ، أتفهمنى ؟

ـــ أرجو أن تفهمنى أنت .. أنا إنسان واضح جدا مع نفسى ، أعرف ما أريد ، وما أفعل .. المهم أن تعرف أنت ما تريد . سامحك الله جئت

لأسهر معك .. فصببت عليّ هذا الدش البارد . على كل تصبح على خير ..!!

تركه وخرج . مضى نحو حجرته وأطفأ النور . جلس أحمد مرتبكا متحيرا . ماذا حدث للدنيا وللناس ؟ مكيافيللى صار نبيّ هذا العصر . الثعلب يلبس رداء الحمل . ظلال النكسة المرعبة امتدتْ .. وزحفت .. كيف يستقيم الظل والعود أعوج .؟!!

* * *

الفصـــل الخـامس

بيت الحاج عوضين تجمع فيه أبناء الحارة ورجالها و نساؤها وبناتها شعبان نجح بامتياز ، وكان الأول على كلية اللغة العربية .

ــ مبروك يا أم شعبان .

ــ قولى يا أم الدكتور شعبان يا أم منال ، (مزغردة) شعبان بإذن الله سيعين معيداً فى الكلية .

ــ شىء يسرنا يا حبيبتى .

حين سمعت زوجة الأستاذ يوسف كلمة « أم الدكتور » تذكرت أولادها المسافرين .. أحمد فى المنصورة ، وحسين فى الصعيد . أحست وحشة وحسرة .

ــ أهلا يا أم أحمد ، خطوة عزيزة .

ــ أستأذن لأن آمال وحدها فى الشقة .

جلس شعبان فى صدر المجلس مثل طاووس نفش ريشه . رجال البيت والحارة تجمعوا يهنئون الوالد بنجاح ولده البكر ، حتى عباس بائع الخضار ، لبس جلبابا جديدا ، تاه فيه .. وجاء يهنئ .

قال الصول عبد الله : ماذا تنوى أن تعمل يا بطل ؟

ــ معيد .. معيد فى الجامعة بإذن الله تعالى . أحد الأساتذة متحمس لى جدا ، وقد وعدنى اليوم خيرا .

قال الأستاذ يوسف : ماذا تنوى أن تدرس يا بنى ؟

ـ سوف أدرس وأتخصص فى النحو يا عمى .. النحو عماد اللغة والفكر . وقد صدق الشاعر حين قال :

كلامٌ بلا نحْوٍ طعامٌ بلا مِلْحٍ

ـ على بركة الله يا بنى .

ـ سوف أجعل موضوع رسالتى للماجستير عن « سيبوية » أول النحاة وأعظمهم .

قال عباس فى سذاجة : أكيد سر عظمة سيبويه،أنه كان يأكل الخضار الطازج .!!

ضحك الحاج وهو ينظر إلى ولده فى زهو : يا عم عباس ، مالنا نحن وعلوم الجامعة .؟!

ـ كل الأساتذة قالوا النحو صعب وطويل سلمه ، لكنى أحب الطرق الصعبة .

خلا شعبان إلى نفسه . نام إخوته من حوله ، لكنه مؤرق . نجح فى الكلية بامتياز ، لكنه تمنى أن ينجح فى الحب أولًا . منذ سنتين صادف منال على السطح تنشر الغسيل . تأمل ذراعيها الناعمتيْن وهى تنقلهما بين السلة والحبل . أثناء ذلك كانت تزوغ نظراته عن الكتاب ، وهو يتأملها تتحرك فى خفة ، خاصة عندما تثنى جذعها ، لتأخذ قطعة من سلة الغسيل . المساء فى أوله .. والفتاة فى عذوبتها . اقترب منها ،وأمسك السلة من ناحية، وأمسكتها هى من الناحية المقابلة .

ـ منال .. لماذا لم تردى على خطابى ؟

ــ ماذا تريد أن أقول .؟ (حاولت أن تبتعد ..)

ــ إنك تحبينني .

ــ ما نهاية هذا الحب فى رأيك ؟

ــ آه .. الحب هو الحب .. الحب من غير أمل أسمى معانى الغرام .!

ــ اسمع يا حبيبى .

ــ نعم .

نظر إليها فى شغف دون أن يدرى أنها قالت كلمة « يا حبيبى » سخرية .

ــ لن أعرف إلا نوعا واحداً من الحب .

ــ ما هو .. قولى .؟

ــ الحب الذى ينتهى عند المأذون .

ترك السلة وأمسك ذراعها . لم ترتبك ولم تقاوم . اقترب منها ، فظلت ثابتة . جذب يدها بخفة . أحس ارتعاشة تسرى فى كيانه ، أكيد أمها الملعونة هى التى علمتها هذا الحب الشرعى . الأم تقول ، والبنت تسمع . حاولت أن تمرق من يده ، مال بوجهه ناحيتها . حاول أن يقترب ، وحاولت أن تبتعد . أمها هى السبب .

استجمع قواه المفككة وضمها إلى صدره بالقوة ..!!

ــ أوه .. شعبان . كن عاقلا . أمى تنادى علىّ .

ما برح مشروع القبلة الضائعة يهز كيانه . ظل معجبا بمنال .. وغفر لها سماع كلام أمها ، لأنه هو نفسه لا يستطيع أن يفاتح أمه فى الأمر ، فهى لا تستريح لمنال أو أمها .. وعلى استعداد لأن تقول فيهما ما قال « مالك » فى الخمر .!

أم شعبان ـــ كانت هى الوحيدة التى لا تنتسب إلى عالم القرية ، الذى جاء منه كل من فى البيت . ليس هذا السبب وحده ، هو ما يجعلها تنفر من أم منال وابنتها ، فهى على علاقة طيبة بأم أحمد . يبدو أن السر فى ذلك هو أن زوجة الصول جعلت البيت « معسكرا » لكل من هبّ ودبّ ، وصارت رجل البيت وسيدته . ماذا تفعل وزوجها يغيب طويلا عن البيت ؟ كانت ترى فى كل زائر مشروع خطيب لإحدى بناتها . دعك من كل هذا يا شعبان . لم منال على وجه التحديد هى التى تريدها زوجة ؟ فتاة ممتلئة حيوية وثقة بالنفس . ليست جميلة بقدر كبير ، لكنها فاتنة بشكل ملفت . تهتم بزينتها .. وملابسها . تفصّل ثيابها على أحدث وأجرأ تفصيلة . تضع عطرا نفاذاً ، يصل إلى أنوف كل سكان الحارة . لسانها مثل المكيف ، الذى يبرّد ويسخّن ، فهو مرة يقطر عسلا وسكرا .. ومرات يمطر ناراً ودخانا .

أمها قالت إن الدكتور أحمد سوف يخطبها ، لكنه توظف وسافر .. ولم يحدث شىء . هل غير رأيه .؟ على كل حال باب الأمل ما زال مفتوحا ، ويوم أعين معيدا فى جامعة الأزهر ، سوف تتبدّل الأحوال ، وتتغيّر الآراء .. ساعتها لن تعترض الأم ولن تتردد منال ..!!

* * *

استيقظ شعبان فى الصباح على حوار عالى الصوت بين الأم والأب . الحاج عوضين يرفض النزول إلى الدكان ، ليس عنده شىء يُباع أو يُشترى . فكّر فى زيارة أقاربه فى القرية . الأم تتهمه بالإهمال وعدم إدراك المسئولية ، فهو يريد أن يذهب لزيارة القرية ، ويصرف بعض ما معه ، بينما

الأولاد قد كبروا ، والأسرة فى حاجة إلى كل مليم . الغلاء انتشر ، وعزت السلع فى الأسواق . الأبناء مجبنة مبخلة ، هذا ما يجب أن يعلمه كل أب فى هذه الأيام السوداء .

خرج شعبان وأعلن لوالديه أنه سيفتح الدكان ، ويحلّ المشكلة . بينما بدأ يفتح باب الشقة كانت منال فى المواجهة . ربّ صدفةٍ خيرٌ من ألف موعد . هكذا قال فى سره . حيته بإيماءة سريعة . من المستحيل أن يترك هذه الفرصة الذهبية تفلت من يده . مضى خلفها فى صمت ، آملا أن يفتح الحديث معها .. لا ، سيفتح قلبه . تغيرت أشياء كثيرة ، وهو على استعداد لأى شرط . لم تغب عن ذهنه آثار العاصفة التى تركها فى البيت . لا بد أن يكون شجاعا ولو لمرة واحدة من أجل حبه . كانت تسرع الخطى . الجونلة القصيرة تكاد تظهر بطن فخذيها . الكعب العالى جعل قدها يتثنّى ويميل . حين أبصرها عباس بائع الخضار صاح مترنما :

ــ حمرة وجميلة يااااا قووطة .

انفلتت مودعة الحارة . سوف يوصلها إلى العمل . من هنا إلى هناك سيطول الحديث .. ويطول . لا بد من الهجوم . المرأة قلعة تفتح ذراعيْها لأى غاز . أسرع الخطى حتى يلحق بها . أدركها .. أو كاد . فى نفس اللحظة التى وصل عندها ، كانت هناك عربة مرسيدس فارهة . فتحت الباب . تاهت وسط المقعد الوثير . طارت العربة . ضغط السائق بقوة على دوّاسة البنزين .. اختفت العربة وسط الزحام ، وغبار أسود يتصاعد خلفها . توقف لحظة لا يعرف لها مدى . أحس أن كل

أحجار البيوت المجاورة تقذف دماغه . حاول أن يبتلع ريقه فأحس غصة فى حلقه . عربة مرسيدس مرة واحدة يا بنت نعيمة . احتقر عواطفه احتقارا شديدا ، لعن نفسه الأمارة بالسوء . إذا ركبت بنت الصول عبد الله عربة مرسيدس فإن هذا من علامات قيام الساعة .. ساعة ماذا .. لا يدرى !! قادته قدماه إلى الحارة المسدودة . كل من فيها نائم إلا عربة عباس .. الذى يصيح قائلا :

ـــ حمرة ومجنووونة يا قوووطة .

* * *

ـــ أنا مضطر إلى الخروج الآن .

ـــ لماذا يا سيادة المدير ؟

ـــ أحس بإرهاق شديد وصداع . ضعى الأوراق التى تأتى على المكتب ، كل المواعيد تؤجّل للغد .

بالأمس قعدت عند الكوافير ثلاث ساعات ، حتى تجمل شعرها .. ووجهها .. ويديها .. وأظافرها ، الآن يريد أن يخرج .. ويولى . ضاعت آثار خمسة الجنيهات التى انتزعتها من الأم بمشاجرة . تماسكت وتساءلت :

ـــ خيراً يا صافى بك ، أحضر لك طبيب الشركة .؟

ـــ لا وشكرا .. أعرف دوائى جيدا .

ـــ أحضره لك من الصيدلية .؟

ـــ إنه يصرف من عند الحاتى ، كيلو كباب وزجاجة بيرة .. ثم أنام نوما ثقيلا ، بعد ذلك أصبح مثل الحصان .

لم يكن من السهولة أن تستسلم . تساءلت فى رقة ، وهى تغمض عينها

اليسرى فى خُبث :

ــ ألا تحتاج إلى بعض المشهيات ؟

ــ يا ليت .

عادتْ معه إلى البيت بعد أن تناولا الغذاء وشربا البيرة المثلجة . شريفة الشغالة غادرت البيت بعد أن تأخر عن الموعد . بداخل كل منهما رغبة مُضمرة . كانا يلعبان لعبة القط والفأر . هناك بُعد ثالث فى الهندسة الوصفية للبشر يمتد .. ويتحرك ، عندما يحس المرء أنه فى لحظة تحد . التحدى عندما يكون مصدره الرغبة يصبح مثل طوفان هادر .. يضطرب تحت موج هادئ . معادلة صعبة أن يجتمع الماء والنار فى جوف إنسان ، دون أن يطفئ الماءُ النار ، ودون أن يشعل النارُ الماء . لبس كل منهما القفاز الحريرى .. وجلسا يشربان الشاى فى الأنتريه .

ــ تصنعين الشاى بنفس المهارة التى تشربين بها البيرة !

ــ لا تُخجل تواضعى .

ابنة الكلبة تشرب السيجارة بطريقة توحى بأن هذه ليست أول مرة كما ادّعت . أصر أن يمشى مع الفشّار حتى باب الدار .!!

ــ منالَ .. أنت فتاة جميلة وذكية . لِمَ لمْ تتزوجى حتى الآن .؟

وقع الغشيم فى حظيرة الحريم ، ظلت متغابية .. تناستْ أحمد .. وشعبان .. وحسنين ، وكل الكائنات التى تذكرها بالفقر .. وبالحارة .. وبالقرية . إنها تجلس الآن فى الزمالك ، ومقعد المرسيدس يسيل لعابها .

ــ ما زلتُ صغيرة .

ــ من الصعب أن تفلت فتاة حلوة مثلك من عيون شخص ما .

— العمل فى الشركة فتّح عينى على أشياء كثيرة .

بدأت العصفورة تعترف .

— مثل ؟

— الحب وحده لا يكفى لإقامة بيت سعيد .!!

— هذا رأيك ؟

— إن كنت سمعتَه فقد قلتُه .!!

نظر إليها وقد التفت الساق بالساق ، ولمعت العينان وسط وجه أنيق . تسريحة لبدة الأسد جعلتها تبدو مثل نمرة محاصرة . أعجبه جرأتها .. كيف جاءت إلى هنا دون أن يرعبها الوسواس الخناس . ها هى تبدو محاصرة ، لكنها واثقة مثل جيش يرفع الراية .!!

— أكره النماذج النمطية فى الحياة .. أنا معجب بذكائك وطموحك ، لو كنت شابا لتزوجتك .؟

انتفضت كالملدوغة فقد وصل قبل الموعد : نعم ؟ قلها ثانية يا عجوز !!

ضحكت .. وضحكت .. فضحك معها .. أو عليها .. أو على نفسه .. لا يدرى . ما زالت مصرة على التّغابى .!!

— إن وجود مثلك بدون زواج أكبر دليل على أن شباب اليوم لا يبصرون . أوه .. ليت الشباب يعود يوما ..!!

— لم تصرُّ على أنك عجوز ؟

— لأنى عجوز بالفعل .

— فيك ميزات أخرى أظنك تعرفها .!!

ـــ مثل ؟

ـــ أنت رجل أعمال ناجح ، وإنسان مثقف ومجرب . ما يحتاج مع غيرك إلى شهر للتفاهـم ، لا يستغـرق معك لحظـة .. وعنـدك كل الضروريات .

ـــ قد تكون بعض المزايا عيوبا .

ـــ لا توجد حلاوة بلا نار . من يأخذ شيئا عليه أن يترك أشياء .

ـــ عقلك أكبر من سنك . بالمناسبة كم عمرك .؟

ـــ المرأة الغبية وحدها هي التي تقول سنّها الحقيقي .. وإذا كنتَ مصراً يمكنك طلب الملف .

أزاح مائدة تفصل بينهما ، وذهب يحضر علبة سجائر . تعمد أن يغيب قليلا . عاودته آلام الصداع الذي تناساه . حين عاد وجدها قد أعادت إصلاح زينتها . ظهرت رائحة العطر نفّاذة تعبق جو الصالة . تأملت لوحة غريبة ، مرسوم عليها الجزء الخلفي فقط من حصان يجري .. في صحراء خاوية .....!!

ـــ علام تدل هذه اللوحة .؟

ـــ إنها تمثل الزمن .

ـــ لست مقتنعة بما تقول . كثير من محاولات تفسير الفن تشوّهه .

ـــ هذا إذا كان التفسير خاطئا .

ـــ في رأيي أن جزءا من دلالة أي عمل فني يجب أن يظل غامضا ، فالإنسان أسير لما يتحدّاه .

ازداد إعجابا بذكائها : هذا الرأي نتيجة خبرة أم دراسة ؟

— مجرد انطباعات امرأة بدائية .!!

أشعل سيجارة لها .. وأخرى له ، وسأل فى هدوء :

— هل تعرفين شيئا عنى .. ؟

— كل شىء .. حتى حميدة وحمدى .

— أنت سكرتيرة أم مخبر ؟

— أنا امرأة يا أستاذ .!!

ظن أنها فريسة سهلة ، وها هو يواجه امرأة ذرية ، تستعين ببراءة الملائكة وتمرد الشياطين لتقنعه بشىء ما . المرأة النجيبة ، تعرف جيّداً ما تريد ، لكنها لا تقول شيئا على الإطلاق ، وتظل تحاور وتناور إلى أن يقول الرجل لها ما تريد ، فى الوقت الذى تحدده ، وبالأسلوب الذى تودّه .!!

— منال .. أنا معجب بك .

— لا أفهم ما تريد .

— أريد أن أتزوجك .

— ولم أنا على وجه التحديد .. لقد عرفت « الحنان » من قبلى ؟

— لقد عرفت .. وعرفت ، لكنى لم أطلب هذا الطلب من واحدة غيرك .

هدأت العاصفة ، ودخل العصفور فى القفص . بدأت فى لبس قناع المساومة بعد أن انتهت مرحلة الجد .

ـــ زواج .. لم أكن أتوقع هذا . أوه .. دعنى أفكر ، فأنت رجل عجوز .. عجوز جداً يا صافى .. قصدى يا جدُّو صافى .. وأنا .. أنا بنت حلوة .. وصغيرة .

ـــ أنت قطعة سكر ... يا حبيبتى .

* * *

الفصـــل الســادس

فى حارة من حوارى « الدوحة » القديمة التقت مجموعة من العمال المصريين . تناولوا العشاء ثم أخذوا يدخنون ويشربون الشاى ، ويتباهون بما وصلهم من أخبار عن الأهل والأحباب . كانوا من قرى ومدن شتى فى الشمال والجنوب ، تناسوا كل شىء إلا أنهم غرباء . الوحدة قاسية وقاتلة . الوقت يمرّ بطيئا .. ثقيلا .. ثقيلا . طويل يا زمن الغرباء . أخذوا يصفقون فى إيقاع منتظم ، وهريدى الصعيدى يغنى بصوت مشروخ :

جمل حداه ألـــمْ جوّ الجِمْـــــل مِدّارى
لا الجمل بيقُول آه ، ولا الجمّال بيه دَارى
دارى على بلـــوتك ياللّى ابتلـــيتْ دارى

الله .. الله .. قول كمان يا هريدى .

غاب كل منهم فى آلامه . لكنهم تناسوا كل شىء إلا الرغبة فى الاستمتاع باللحظة ..

ــ أيوه .. يا عم هريدى .. كمان .. قُل كمان :

منين أجـــيبْ صبْـــر يغنينـــى على بُعـــدك
ياللّى هجـرت المنام والفـــرش من بَعـــدك
وبيّـــاع الصبر حرّم بِيعُـــــه من بَعــــدك
وإذا كان على الصبر عندى مية مركب ملانة صبر

دا انا باسْمع مُنادى ينَادى كلِ يُوم العصر
يا للى كواك الزمـان اصنبــرْ على بُعــدك

تمايلوا مع إيقاعات هريدى ووقفاته ، مثلما يهتز نشوة الهائمون فى حلقة ذكر . الوجد حالة لا يصل إليها الذاكرون إلا بعد أن يتطهر الجسد الفانى .. ويعرف السالك طريقه .. وتصبح الروح شفافة خالصة . احتوتهم جميعا حالة الوجد هذه . كانوا يصيحون مع كل وقفة .. آآه .. الله .. آآه .. الله .!!

الغربة تفل الحديد ، وهؤلاء المغتربون بشر ، قلوبهم مجروحة .. وأفئدتهم مشروخة .. وروحهم هائمة ...!!

حسنين عندما جاء كان ذا عود صلب وعزيمة قوية .. شيئا فشيئا يذوب الملح فى الماء . صورة الأم لا تفارق مخيلته ، طيف منال يؤرقه كثيرا .. ترى هل ما زالت تنتظر أم أنها ارتبطت برجل غيره ؟ عندما بدأت تكبر وتحلو صارت تنفر منه . الأم نعيمة تكثر له من الوعود ، الأب الصول عبد الله رجل مائع ، لا يدرى هل هو معه أم عليه ؟ جرب أحيانا نساء الليل ، لكنه غشيم حتى أذنيه فى الحب . لم ينل أى قسط من التعليم ، لذلك رغب فى منال المتعلمة . الأم مدرسة .. وهو يريد أماً صالحة لأبنائه ، حتى لا يفشلوا فى التعليم مثله . البنت منال دخلت نافوخه وتربعت فيه . منذ دخلت ضاع المفتاح . الحب لا وجود له إلا فى أفلام السينما . هكذا قال له بعض الزملاء .. لكنه مصر ومتمسك .

ــ مالك يا زلمة ؟

سأله زميل فلسطينى فى جراج شركة « تويوتا » التى يعملون بها ..

اسمه زيد .

ـــ تعبت من الغربة يا أخى .

ـــ أصبحتم مثلنا فى الضياع مع فارق بسيط ، هو إمكانية العودة .. على كلٍ ، الفقر فى الوطن غربة .. والغنى فى الغربة وطن .

لم يفهم ماذا يقصد على وجه التحديد ، غير أنه أثار خواطره . عندما سمع هريدى يردد « ياللى كواك الزمان اصبر على بُعدك » ، لم يقدر على الصبر .. بكى بحرقة ، وعلا صوت النشيج . ارتبك الزملاء . حسنين الولد الجدع يبكى ، غير معقول سبحان من يغير ..!! يا سلام يا جدعان !! دنيا ؟!

خرج بعد أن هدأت ثائرته . ظل يسير إلى أن بلغ الشط . جلس الغريب على الخليج يتأمل الأمواج المتلاطمة ، وظل القمر غريقا فى الماء . تذكر أمه .. ومنال ، وتذكر القرية .. ومصر . عندما كان فى أرض الكنانة لم تكن له علاقة من قريب أو بعيد بالسياسة . هوايته المفضلة مشاهدة السينما ومباريات الكورة ، لكنه وجد الناس فى الغربة لا يتعاملون بأسمائهم وإنما بجنسياتهم .. مصرى .. سودانى .. فلسطينى .. عراق .. هندى .. باكستانى . زيد الفلسطينى لفت انتباهه إلى خطورة اليهود الذين يحتلون شرق القناة . اليهود بدأوا يبنون المستوطنات فى سيناء . بارليف بنى الخط الحديدى . مصر قلب الأمة ، إذا لم تتحرر فقل على العروبة السلام . إيه يا مصر .. مضى على النكسة أكثر من أربع سنوات .؟! تأمل أمواج الخليج الهادئة فوجد ظل القمر قد اختفى . تحامل على نفسه ، وسار متجها نحو شارع عبد الله بن ثانى ، ورطوبة خانقة

تغلّف الكون حواليه .

* * *

عندما وصل الروائى الحائر بين شخصياته .. وقرائه عند هذه النقطة من تطور عالمه القصصى ، أحس بقدر من الضيق والأزمة ، وسر ذلك أن الشخصيات التى حاول أن يكوّن منها منظومة منسجة ، بدأت تتمرد على واقعها .. وظروفها الخاصة ، وبالتالى فقد صارت عصيّة الاستجابة لمؤلف ــ حاول أن يؤلف بينها ، خاصة وأنه ــ أطال الله فى عمره ــ ألزم نفسه بما لا يلزم ، وأدخل ذاته فى إطار شخصياته . كذلك فإن الحيرة لم تأت من قبل مكونات العالم الروائى فحسب ، وإنما إزاء محيط القراء أيضا ــ الذين لم يعتادوا هذا النوع من الكتابة ، خاصة وأن الرواية يتنافس فى قراءتها اليوم علماء السسيولوجى والسيكلوجى والمورفولوجى .. ونقّاد البنائية والأسلوبية بعد أن تقاعست البلاغة التقليدية ..!!

وقد زاد الحيرة تأزما أن المؤلف وجد سجائره انتهت ، وأنبوبة البوتاجاز فرغت ، وهو لا يستطيع أن يكتب إلا فى ضوء السيجارة وكوب الشاى . هنا انتهز فرصة نوم أم العيال وقرر أن يخرج .. ولكن إلى أين ؟ إن معظم الشخصيات قد رحلت بعيداً ــ كما أنهم فى حالة نفسية يصعب فيها التفاهم معهم . قرر أن يكون اللقاء مع أعقل المجانين .. أو أقل العقلاء جنونا .. وهو المهندس مصطفى بركة .

الساعة الحادية عشرة عندما طرق الباب عليه . رحب متحفظاً بقدومه ، وهو يقدم له الكرسى ليجلس معه فى بلكونة خلفية بعيدا عن إزعاج الشارع العمومى .

ــ أصبّ لك كأسا .؟

ــ أحتاج إلى كوب من الشاى ، وسوف أعده بنفسى حين أحتاج إليه .

طالت بينهما لحظة صمت ، وتشاغل كل منهما بسيجارته مخفياً حيرته .

ــ لم طلقت زوجتك الأولى ؟

ــ أعتقد أن الحياة مقسومة قسمين متعادلين إلى حدٍ ما ، العمل والحياة الخاصة . العمل مكان تلتقى فيه بشخصيات مختلفة فى الفكر والمزاج ، وقد تنسجم معهم أو لا تنسجم .. ليس مهما ، المهم أن يسير العمل المشترك . العمل لحظات محدودة يؤديه الإنسان ، ويعود إلى بيته ، إلى مملكته الخاصة ، مملكة هو وحده السيد فيها . عندما تدخل الزوجة إلى الدار فإما أن تجعلها دوحة من رياض الجنة أو حفرة من قاع الجحيم . فى رأيى أن الزوجة إذا لم تكن مريحة ومُسعدة فإن عدمها أفضل من وجودها .

ــ من المتسبب فى فشل العلاقة .؟

ــ لا أريد أن أظلمها كما لا أقدر على أن أظلم روحى .. ولا أود أن أعكّر صفو لحظة، أشرب فيها لأنسى . تصور ؟

ــ ماذا ؟

ــ إنها الآن زوجة سعيدة مع أحد الأقارب .. وقد أنجبت له ولدين ، حمدى وحميدة يزورانها دون أية مشكلة .

ــ تعنى أن الطلاق كان فى صالح كليكما .!

ــ الطلاق أحيانا رحمة لكلا الطرفين ، أن ينفصل زوجان خير من أن يُبنى بيت على الخيانة أو الغش أو طلوع الروح .!!

— على كلٍ هذه قضية حسمتها من زمن .. يبدو أنك على وشك الدخول فى أزمة جديدة .

— خيراً إن شاء الله ..!

— منال .. يا سيادة المدير العام .

— إنها موظفة ممتازة وذكية .

— فى الشركة مائة موظفة .. فلم اخترتها دون غيرها ؟

— مصادفة .. أم أنك كاتب واقعى لا يعترف بدور المصادفة فى حياة الناس .. وبناء الرواية .؟!

— ادخلْ فى الموضوع .. ولن نختلف فى المسلّمات .

— عُينت سكرتيرة بالمصادفة .. لكنها استثمرت الفرصة ، وأثبتت كفاءة نادرة ..

أكثر من هذا فإنها تهتم بى اهتماما من نوع خاص ، كأنى أبوها .. أستاذها .. عشيقها .. شىء من هذا القبيل .

— بالطبع أنت سعيد بهذا ؟

— ألست رجلًا ..؟ كل رجل — فى أعماقه — طفل غرور ، يسعده أن يكون محبوبا من النساء .

— إذن فقد أرخيت لها الحبل .

— لأنها تريد .. وهى مصرّة على أن تلفت نظرى أو تفقأ عينى .!!

— أرجو ألا تفاجأ ؟

— بماذا ؟

— إنها شبه مخطوبة .

ــ لا أكاد أصدق .. إنها تتعامل معى ، كما لو لم تكن قد رأت أى رجل فى الوجود .

ــ هل تعتقد هذا ؟

ــ هذا هو ما رأيته .

ــ تلك الفتاة طراز فريد بين النساء .

ــ وضح ما تعنى ؟

ــ المهم أن تتصرف معها بوعى .

ــ لم تطلب منّى ما عجز عنه أبونا آدم نفسه ؟!

* * *

عادت منال إلى البيت مساء ــ كالعادة . تبدو عليها سمات السعادة والفرحة . قبلت الأب والأم . جلست بجوار أبيها بعد أن وضعت على المائدة خمسة وثلاثين جنيها .

ــ هذه مكافأتى عن « الأوفرتايم » يا بابا .. احتفظ لى بها ، قد تحتاج إلى نقود كثيرة لتؤثث لى بيت العرس .

صاحت أمها منبهرة : صحيح يا ابنتى .. متى أفرح بك يا حبة عينى ؟

ــ ألست فتاة يا أم ميمى .. وكل فتاة مصيرها الزواج ؟

قال الأب وهو يعد النقود مسرورا : أنت زينة الصبايا يا ابنتى .. من مثلك : جمال وكمال .. يا روح بابا ؟!

اعتذرت عن العشاء بحجة أنها متعبة . دخلت الحمام فاغتسلت وغيرت ملابسها الداخلية . عادت إلى الحجرة ، وأخذت تكمل طقوس زينتها . منال صاحبة فلسفة خاصة ، فهى ترى أن الجمال قد يكون منحة

يهبها الله لبعض النساء ، لكن الذى لا ينبغى ألا تفرط فيه امرأة هو التجمّل . المرأة فى أى مكان ينبغى أن تكون وردة فواحة العبير جذابة المظهر . إن الله جميل يحب الجمال .. وجمال الوجود كله فى امرأة فاتنة .

خلعت الروب بعد أن مشطت شعرها . قبل أن تلبس قميص النوم حلا لها أن تتأمل نفسها فى المرآة . منال فتاة ، هيفاء العود ، رشيقة القوام . كما يتلذذ البخيل برنين قطع الذهب التى يخفيها عن العيون ، كانت سكرى وهى تتأمل مفاتنها الشابة . أيها القمر الجميل فى السماء بعيداً بعيداً متى تقترب من الأرض ؟ أيتها البنفسجة المتفتحة متى يُشم عبيرك ؟ أيتها الكروم الدانيات لقاطفٍ ، من يسكر برحيقك ؟ أيتها الحمامة المغردة .. من يسعد بغنائك ؟!

مرت بخاطرها ذكرى لا تستريح لها .. ولم تطلع أحداً عليها . زارت أثناء مرحلة البطالة صديقة تسكن مع أم أرمل فى أول شارع الهرم . ألحت عليها كثيرا من أجل هذه الزيارة . استقبلتها الأم بترحاب شديد . بالغت فى إكرامها . تغذّت لحما وتفاحا . أكلت التفاح لأول مرة عندها . أعطتها قطعة قماش عند الخروج ، وطلبت منها تكرار الزيارة ، فهى تعيش وحيدة مع ابنتها سنية .

ابتسمت أم سنية عندما رأتها تعود .. وتعود ، بعد أن أعطتها زجاجة عطر ثمين . لاحظت فى البداية أن لها زواراً كثيرين ، أوهمتها أنهم أقارب المرحوم . كانت تصر على أن تجلس معهم « فكلنا أهل وما غريب إلا الشيطان » .

اكتشفت أن معظم أقارب المرحوم موظفون وطلبة جامعة .

ولا يوجد بين الأقارب أى رجل عجوز أو امرأة . الشقة لها مدخلان . أحياناً تسمع طرقاً ولا يدخل أحد من الباب الذى تدخل منه . تجرأت مرة وسألتها عن سر كثرة أقارب المرحوم من الطلبة ، فردت وهى تضحك ضحكة مبتذلة : أنا حبيبة الطلبة يا روحى .!!

بدأت تشم دخانا لكنها لم تر ناراً بعد . أحست بقدر من الخوف ، لكن خوفها الأكبر كان على ضياع الهدايا الثمينة . بدأت تتعرف على بعض الزوار .. الذين يأخذون موعداً للقاء عند أم سنية . ذات مساء جاءت ، فوجدت الأم تجلس وحدها ، مع رجل يبدو من سلوكه أنه تاجر غنى ، صبت لها كأسا :

— هذه بيرة .. وكل الأولاد تشربها هذه الأيام ، اشربى يا روحى .

شىء ما دفعها ألا تتردد . سيجارة أيضا يا حبيبتى حتى تحلو الجلسة .

التمثيل فى البدء هواية سرعان ما ينقلب إلى حرفة . حدث قدر من التعارف والتلاطف بينها وبين المعلم سيد . ذات يوم تركتهما الأم وحيدين .. وخرجت أو ادّعت ذلك .

— أنا معجب بك يا جميل .

— عيب يا معلم .. أنت رجل متزوج .

— ومن قال إنى — لا سمح الله — أريد غير هذا .؟ لكننى تاجر ، والتاجر الشاطر لا يأخذ بضاعة دون أن يعاينها .. ويراها .

دارت الرأس الصغيرة . لم تدر هل من أثر الكأس والسيجارة .. أم من أثر المفاجأة . ماذا يريد هذا الرجل على وجه التحديد ؟ أم سنية أوقعتها فى الشرك وذهبت فى داهية . الداهية هى أم سنية نفسها .. الكلبة بنت

الكلبة انشقت الأرض وبلعتها . دق قلبها دقات مضطربة . الرجل تاجر خبير . فاجأها مرة أخرى :

ــ هذا دفتر شيكات .. تأمليه لتعرفى هل هو مزوّر أم لا ؟ اخلعى الفستان فقط .. وبعدها سوف أكتب لك مهراً بالمبلغ الذى تحددين .

ــ يا معلم عيب .. أنا بنت شريفة ومن عائلة محترمة .

ــ ما عيب إلا العيب يا بنت الناس .. لا أريد منك شيئا إلا بالحلال .. على سنة الله ورسوله .

ما زالت مترددة .. وخائفة . باب الحجرة مغلق .. وربما أغلقت الكلبة باب الشقة أيضا . الجندى عندما يحاصر بدون سلاح ، لابد أن يلجأ إلى الدهاء والحيلة .

ــ لا أصدق كلامك .

أخرج حافظة نقود عريضة ، وقدم لها خمسين جنيها .

ــ ما هذا ؟

ــ عربون اتفاق .

ــ هذه الملاليم تشترى بها ترمس يا .. يا .. معلم .

الشيطانة الصغيرة لا تعرف أن هذه كل مكسب الدكان اليوم . السوق واقف لا يتحرك . النكسة جعلت الناس يربطون الأحزمة على البطون . أم سنية لم تأخذ هى الأخرى أجرها بعد . كان يرضى بأية امرأة .. ما الذى أوقعه فى شباك هذه القطة المتوحشة ؟ من أجل الشوك يعشق بعض الناس الورد . كل منهما يراجع حساباته الخاصة فى لحظة

قاسية . أحسست أن المعركة فى صفها .. بينما أصر هو على أن يرى أوراق زهرةالبنفسج .!!

أخذت المائة جنيه . وضعتها فى حقيبة اليد . وقفت أمامه بملابسها الداخلية . نظر إليها بشوق وشبق . ما هذه امرأة .. إن هى إلا تمثال رائع للفتنة والجمال .. زهرة لم يمسسها من قبل إنس ولا جان . لقد دفع .. ومن حقه أن يعاين البضاعة ويراها عن قرب . أول مرة تختلى فيها برجل .. كانت على وعى كامل بما تفعل . دليلة قصت شعر شمشون ، وقدمته كبشاً وديعا للأعداء . سالومى رقصت ليحيى المعمدان .. وظلت تغريه حتى قطعت رأسه ، وقدمتها على صينية من فضة لليهود . حواء ضحكت على الشيطان وآدم معا . المرأة مهما رهبت لا تعطى إلا إذا رغبت .!!

قالت مهددة : احترم كلمتك .. إياك أن تقترب منى ، أصيح .. أصوّت .. أنادى الجيران .. أفضحك .. بل أقتلك .

طوتْ على هذا الموقف الخطير ستارة داكنة ، وقررت ألا تعود . بدأت تشغل نفسها بحب أحمد . شيء ما فى داخلها يدفعها إلى معاكسة الرجال وتحديهم . أم سنية كانت تقول لها أنت موهوبة بالفطرة يا روحي . لم تكن تدرى من أين جاءت إليها بكتريا الفتنة والإغراء ؟ رأت وهى ما تزال صبية أن حسنين يمكن أن يكون زوجا لها ، فاستجابت إلى ثرثرته ، وقبلت ــ شاكرة ــ هداياه . وقفت عند شعبان لحظة ، غير أنه كان صغيرا جدا فى عينيها . أحمد هو الرجل الذى كانت تحلم به .. شاب مهذب .. مثقف .. يدعو إلى الاحترام . من سخرية القدر أن أحمد هو الذى أوصلها بيديه إلى طريق مصطفى بركة . هذه الدنيا عجيبة .. قلبى

عليك يا أحمد .. كيف أخرجتك من حياتى بهذه السرعة ؟ على كل حال أحمد ما زال فى بداية الطريق ، سوف يوفقه الله إلى فتاة جديرة به .. لا تكون عفريتة مثلى ..!! لن أنتظر . لن أعيش حياة فقيرة بعد اليوم . مصطفى بركة هو الحقيقة الكبرى التى أعيشها الآن . مدير شركة ، شقة فى الزمالك ، عربة فارهة ، رجل مجرب يعرف معنى الحياة .!! فيه ظل من أب لم أتعرف عليه عن قرب . الصول عبد الله — كان الله فى عونه — عاش عمره بعيدا .. فى سيناء .. والزقازيق .. والسلوم .. والصعيد ، يتنقل حسب كتيبة المشاه التى ينتمى إليها . عشنا طوال العمر محرومين من حنانه وقربه . البنت مهما كانت قطعة من الأم ، لا تستغنى عن حنان الأب .. مطلقا .. مطلقا . مصطفى بركة .. سيكون الزوج والحبيب والأب .. والمستقبل الآمن . الحياة فرص ، ويجب على المرء أن يمتص — حتى النخاع — كل فرصة تأتى إليه .!!

لبست قميص نومها .. تأملت سماء الغرفة .. استرخت وقد سكرت بما وصلت إليه من قرار . أحست أن الكون بهيج والحياة حلوة . الحياة تحلو عندما تستقر السفينة فى ميناء آمن . الحب ربيع الحياة .. والزوج السعيد كل الحياة .. تمنت أن ترقص .. وأن تغنى . تذكرت أغنية حفظتها عندما كانت فى فريق الموسيقى بالمدرسة الإعدادية :

يمامـــه بيضَه ومنين أجـــيبها
طارتْ يا نينـــه عنـــد صاحبها

وخطفها البلبل وطار ويّاها
قصدُه يا نينَه يعرف لُغاها
تطير وتجيني قاصده تسلّيني
لا حلف بديني لأطير ويّاها

* * *

الفصل السابع

أحس شعبان عندما فقد منال .. أنه فقد شيئا عزيزا . منال فتاة ذات طعم خاص ، يشعرك أنك أمام أنثى ذات فتنة وجمال وكبرياء . أغراه بها أكثر انشغالها بغيره . كان يظن أنها قادرة على أن تأسر جيشا من المحبين . الهجر والغدر يصيبان المحبوب بقدر من العناد ، والرغبة فى تحقيق الرجاء . فتاة .. قوية الشخصية .. غريبة الأطوار . مثل منال لا تأتى بسهولة .. المرأة الجميلة لا تسلم إلا بعد صراع وهجوم .. وانتصار . أغراه بهذا الفهم مشاعر مراهقة عن الحب ، وأوهام هلامية عن المرأة ، كما أغراه بهذا أيضا بيت من الشعر لأمير الشعراء .. ورد فيه اسم « منال » :

وما نيلُ المطالِب بالتمنّى ولكن تُؤخذُ الدنيا غِلابا

وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الأقدامُ كان لهم ركابا

قذف بفلسفته المتوهمة إلى مستنقع النسيان ، بعد أن سدت منال كل ثقب من رجاء .. يمكن أن ينفذ منه عاشق ولهان .!!

لم يكد شعبان يفيق من صدمة حب ، اشتعل فى قلبه من طرف واحد ، حتى وقعت على رأسه كارثة أكبر ، ومصيبة أعظم . ضاعت منال .. لا بأس ، فأمه غير موافقة عليها ، وحالة الأب المالية متأزمة ، فليس هناك سبيل إلى الزواج ، أو حتى إعلان الخطوبة . الداهية الأعظم .. والأكبر ، هى أن الأستاذ الذى تبنّاه وآمن بقدراته ، سافر فجأة فى إعارة إلى إحدى

الجامعات العربية . ضاع حلم سيبويه العصر الحديث ، مات قبل أن يولد . رحل الشيخ الدكتور عبد الستار بعيدا .. وطار معه الحلم ، ضاع فى أرض الغول والعنقاء .!! ضاقت نفسه أكثر عندما كان يعلو الحوار بين الوالدين نتيجة الفقر .. والأزمة .

اسودت الدنيا فى عينيه .. الباب الوحيد الذى وجده مفتوحا أمامه .. هو باب المسجد . خرج ذات مساء بعد صلاة العشاء ، ومعه صديقه علاء . كانا يسيران وشارع النيل ، حيث الأضواء خافتة والمياه راكدة . جلسا على شط النيل .. وقد طالت لحية كل منهما :

— ألم يعد هناك أمل فى أن تُعيّن معيداً يا شعبان ؟

— لا .

— لكنك أول الدفعة .

— المركب بلا شراع لا يصل إلى شاطئ .

— أرأيت يا أخى ..؟ الأوضاع كلها فاسدة .. اليهود يحتلون سيناء ، وقد انتشر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس .

— ماذا تقصد ؟

— نحن الشباب عماد هذا البلد ، يجب أن نعمل شيئا .

— كيف ؟

— نعتصم بحبل الله .. ونوحد صفوف الناس ، كل ما نحن فيه من مفاسد ، بسبب أننا ضللنا الطريق المستقيم . النصر فى كل المعارك لن يتحقق إلا بصحوة إسلامية .

— وهل هذا مقدور عليه يا علاء .؟

ـــ نعم يا أخى .. إن شعبان لم يُعين معيداً لأنه ابن بقال ، لو كان أبوك واحدا من إياهم ، ما حدث لك هذا . سوف نجاهد يا أخى حتى نرفع كلمة الحق ، ونغير ما نحن فيه ، فالله ـــ سبحانه وتعالى ـــ لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم .!!

كانت كلمات علاء بردا وسلاما على قلب شعبان . آمن بما قال .. وتعاهد معه . الطرق المسدودة تضطر الإنسان إلى البحث عن أى طريق جديد . عاد متأخرا إلى الحارة . مدخل البيت مظلم ، لكنه صار يعرف الطريق جيدا .!!

* * *

الوطن .. لماذا يحب الناس الوطن ؟ تساءل حسنين فى نفسه وهو عائد إلى أرض الوطن . تمنى أن يقبل الأرض عندما يهبط من سلم الطائرة ، بل تمنى أن يقبل كل من يراه ..!! مرت عليه سنة كاملة ، وهو يعد الأيام انتظارا للحظة العودة . الخير كثير والرزق وفير .. فى الغربة ، لكن الوطن هو الوطن .. البدء والختام ..!!

ـــ يا سلام يا عمى عبد الله ، لم أكن أصدق أن الغربة صعبة إلى هذه الدرجة .!!

ـــ المهم أنك عدت بالسلامة .

دخلت ماجدة تحمل كوبين من الشاى ، ومن خلفها الأم .

ـــ وحشنى شايكم المضبوط يا خالتى أم ميمى .

عاد اليوم من الدوحة .. وآثر أن يأتى إلى هنا ، قبل أن يذهب إلى القرية لرؤية أمه . اليوم لن تقول منال ولا أبوها ولا حتى أمها شيئا . فقد جاء

محملا بالعملة السائلة والصعبة . بالمال يلين لك الحديدُ . رأى الفرحة عريضة على وجوه الأسرة .. وهو يقدم لكل منهم هداياه . الهدايا كثيرة وحلوة .. كله من أجل الورد .. لكن الوردة لم تصل حتى الساعة التاسعة مساء . أى عمل هذا الذى تشتغل به .؟ لا .. لن تعمل منال بعد الآن ..!!

وصلت منال وهم يعدون العشاء . الهدايا تملأ المكان طولًا وعرضاً . سلمت بفتور وضعف . التقيا كما تلتقى النار بالثلج . لا بد أنها المفاجأة السعيدة .. غير المتوقعة .

ــ يبدو عليك أثر التعب .. لم .. كفاك الله الشر ؟!

ــ الشغل متعب ، ويحتاج إلى جهد كبير .. أعود كل يوم فى المساء . المدير يحمل كل أعباء الشركة ، وقد حمّلها لى معه .

ــ أمى ــ أطال الله عمرها ــ كانت تقول المرأة للبيت فقط .

ــ كان هذا على أيامها .. حين تراها قل لها الدنيا تغيرت !!

أراد أن يسترضيها فغضبت لماذا .. لا يدرى.! الأمرُّ من ذلك أنها غادرت الحجرة بحجة أنها متعبة . يا سبحان الله .. إنه لم ينم يومين كاملين ، وجاء ليراها . ماذا حدث لك يا بنت نعيمة .؟!

دخلت حجرتها وارتمت متهالكة على السرير ، دون أن تخلع ملابسها . روحها مغتربة بعيدة .. كانت مهدودة الحيل ، مشتتة الفكر .. عندها ما يشغلها عن حسنين .. وعن البيت .. وعن الحارة .. بل عن الدنيا كلها . دخلت الأم ــ بفرحة طفل ــ تحمل خاتما مرصعا بلؤلؤ الخليج . لم تكن تنظر إلى الابنة بقدر ما تنظر إلى الخاتم المرصع .

ــ انظرى يا حبيبتى ، ذوقه جميل . حسنين أحضره لك . به لؤلؤ

حقيقى من الخليج يا حبة عين ماما .

ــ قولى له يعطيه لأمه .

ــ ضعى فى عينك حصوة ملح .. خُذيه ، وبعد ذلك يحلها ألف حلال .

ــ ما المناسبة .؟

ــ إنه قريبنا .

ــ قريبك أنت ..!

ــ لا فائدة من أى كلام معك . دائما عنيدة . أبوك هو السبب . لا بد أن يأتى ليعرف شغله معك .

نادت على الأب .. وهى تلعن البنات ، وخلف البنات .

جاء الصول عبد الله مسرعا على صوت زوجته . منال ليست على ما يرام . أحس أن الفتاة تتألم لشىء ما ، ليس هو بالطبع طلب حسنين . منال موضع ثقته ، لكنها بنت .. والبنت مثل البيضة تخدش من أقل شىء . تمنى أن يضم ميمى إلى صدره ، ويسألها عن سر ما تعانى . لكن الأم صاحت أكثر عندما رأته يقف تائها ، دون أن يفعل .. أو يقول شيئا ..!!

ــ من قال لك إن ميمى يمكن أن تتزوج حسنين ، هل جننت يا امرأة أنسيت أنها مخطوبة لأحمد .؟

ــ المهم .. إنه أنت الموضوع معه .

ــ تعملين العملة وتقولين حل المشكلة .. لن أحل شيئا ، إنه قريبك ، وأنت السبب .!!

ــ كفى .. كفى .. أنا تعبانة .. تعبانة يا عالم . اتركونى وحدى ..

اتركونى وحدى ...

تحاملت حتى طردتهما من الحجرة .. وارتمت متهالكة على السرير .

عاد الأب يرحب بالعزيز القادم ، هناك مسحة أسى تظهر على وجهه . وضعت الأم كوبا من الليمونادة . أدرك حسنين أن الموقف غير عادى . أحس أنه ضيف غير مرغوب فيه . ماذا يفعل الآن .. وقد حمل لبيت الصول عبد الله هدايا كلفته الكثير .. والكثير ؟ ماذا حدث للدنيا .. وللناس ؟ ماذا يفعل حتى يرضى هذه الفتاة اللعوب ..؟! وقع الجمل ولا قيمة لما حمل . كانت الأم تمص ليمونة ، وتعصرها بفمها .. ظلت تعصرها إلى أن مصت كل مائها ، ثم قذفت بالقشرة بعيدا من الشباك ، فتاهت فى ظلام الحارة ..!!

* * *

يومان مرّا عليه فى القاهرة كأنهما عامان . جاء أحمد لرؤية الحبيبة .. لكن الحبيبة تتهرب منه . أرسل أخته آمال .. لا فائدة . أحس أنه مضيع . هدمت منال فى لحظة صرحاً من سراب بنياه فى سنوات . كيف حدث هذا ..؟! فكر فى أن ينتظرها بالخارج ، عندما تلتقى العيون سوف تعود سيرة الحب من جديد . إذا لم تكلمه .. وتعود إليه .. فلا بد أن .. لا بد أن يقتلها .. ويقتل هذا الحب الكاذب الذى يفسد عليه حياته . كل المحبين أخلصوا للمحبوبة حتى عندما تهرب .. أو تخون . لماذا لا يقتل محبوبته جهارا نهارا .. ويصيح فرحا : قتلت الخائنة .. قتلت الخائنة ..!!

ظل يفكر .. ويفكر .. ويفكر فى مصيبته الناقعة . حاول أن يلتمس وسيلة سهلة للقتل .. لقتل منال ـــ الخائنة .. الخائنة . الخيانة شىء

فظيع .. مر ..!! كيف يمكن أن يخون الخائنون ..؟ كيف يخون الإنسان نفسه .. ويقتل حبه ؟! الانتقام لابد من الانتقام من بنت نعيمة اللئيمة ..!!

هز رأسه كأنما يحاول طرد وساوس شيطانية تسيطر على فكره . عظيم ، سوف تموت منال .. وتذهب فى داهية . لكن الأب المسكين يوسف البدراوى ما ذنبه .. ؟ والأم الصابرة زينب أم أحمد ، ماذا فعلت ليكون هذا مصير ولدها البكر ، الدكتور أحمد يوسف الذى تباهى به الأهل والجيران ؟! قلبه يحدثه كثيرا أن منال قد ذهبت مع الريح .. لكنه ظل يوهم نفسه بأعذار هشة . لم يلقها طوال ثلاثة شهور ، ولم يعرف عنها إلا بعض أخبار متناثرة من خلال خطابات أخته آمال .

بدأ يدرك أن الحب قد هوى . الحس لا يكذب صاحبه . أمور كثيرة تمر علينا فى الحياة .. لا نعرف عنها حقيقة ثابتة .. غير أن الحس الصادق ، يولد فى النفس شعورا بالرضا أو السخط .. ويكون هذا الشعور المبهم ، هو عين الحقيقة المجهولة التى نفتش عنها ..!!

ضباب .. ضباب كثيف ، يغلف الكون حواليه . وجودها بجواره كان يشد أزره .. ويجعله صلبا فى مواجهة الأحداث . عندما هتف للحرية .. ونادى بالحرب .. وتمسك بالقيم ، كان يحس أنها معه .. فى داخله .. تسير فى دمائه . أدرك أنه عاش أسير وهم كبير سنوات كاملة . منال لم تكن وهما ، بل كانت أملا . هى التى جذبتنى إليها .. وشدتنى نحوها . اليوم تفعل هذا ؟ غير معقول .. لكن هذه هى الحقيقة .. الحقيقة المرة ..!! تمنى أن يلعنها .. وأن يدعو عليها .. غير أن لسانه عجز .. وقلبه

اضطرب .. ما زال فى الفؤاد المعذّب بعض وفاء . أحس غصة فى حلقه ، حين تذكر أنه هو الذى أوصلها بيديه إلى مكان ، هربت فيه منه ..!! دنيا ..!!

قادته قدماه إلى منزل الشلة فى المنيل . دار حوله كما يدور العاشق حول أطلال الذكريات . غير معقول ..لم يعد فى الدنيا أمور معقولة أو غير معقولة . الدنيا مفاجآت فانتظر المفاجأة — أية مفاجأة .. وتصرف بحسب ذكائك أو غبائك ، فهذا قدرك .. وعالم اليوم يحكمه مبدأ عدم التوقع .!!

الزعيم عادل فهمى .. ما زال مؤمنا بمصر .. وأن المعركة قادمة . لم يكن حريصا على التخرج من كلية الطب ، وإنما حرصه الأكبر على أن ينشر مبادئه النضالية بين الطلبة . تعانقا بحرارة .. وجلس . كان يعرف بعض الوجوه ، فقد رآهم من قبل فى الكلية .. أو فى المظاهرات .. أو فى بعض الندوات . أحس قدرا كبيرا من الألفة يجمعه بهؤلاء المعذبين من أجل الوطن . أدرك — أخيرا — أنه استردّ روحه الغائبة . عادل فهمى شاب صلب العزيمة مثل تلال المقطم ، لا تؤثر فيه ريح تهب من أى اتجاه .. السياسة عالمه ومصيره . وهب حياته للوطن . اعتقل مرتين .. لكنه كان يخرج من المعتقل أكثر شراسة وقدرة . بدأ يتحدث فى ثقة :

اليوم ٥ يونيو ١٩٧١ مضى على النكسة سنوات ، وما زالت حالة اللا سلم واللا حرب مستمرة . القيادة الجديدة مشغولة بما تسميه « ثورة ١٥ مايو » وبكرسى الحكم أكثر من انشغالها بقضية الحرب ومصلحة البلاد . علاقتنا بالشرق متوترة ، وبالغرب مشكوك فيها .

الأمل .. كل الأمل فى جماهير الشعب . مصر هزمت الهكسوس والفرس والرومان والتتار والصليبيين .. من غير المعقول أن تهزم أمام عصابة صغيرة من اليهود .

ـــ اليهود ليسوا وحدهم .

ـــ ومن قال إننا وحدنا .. معنا كل العرب ، المهم أن تبدأ الشرارة .. الطلقة الأولى . فى رأيى أننا يجب أن نبدأ حرب العصابات .

ـــ هل تظن أن حرب العصابات تخترق خط بارليف .؟

ـــ ولم لا .؟

ـــ وقضية السلاح .؟

طرق شديد على الباب . من القادم .. ولم يطرق بهذا الشكل المزعج ؟! اقتحم الشقة كالسيل الهادر مجموعة من رجال الأمن . فى ثوان فتشوا الشقة ، وقبضوا على كل الموجودين . كانت المفاجأة أسرع من أى خيال . صاح عادل بصوت كله ثقة :

ـــ إياكم أن تهتزوا .. اصبروا وتماسكوا .. نحن وطنيون ، لم نرتكب أى ذنب . الله معنا .. تحيا مصر .

حاول أحد رجال الأمن أن يسكته بالقوة ، فأمسك يده ، وحذره من استعمال العنف . مضت السيارة المغلقة بركابها وسط ليل القاهرة المظلم إلى مكانٍ ، لا يعلمه إلا الله .. و.. وزير الداخلية ..!!

* * *

وطّن مصطفى بركة نفسه منذ مدة طويلة على حياة الوحدة ، لكن الظروف ساقت إليه منال . بينهما فى الزمن ثلاثون سنة .. فارق كبير ،

غير أن الحب يهدم كل الحواجز . انشغلت به وانشغل بها . رأى أنه فى حاجة ماسة إليها .. الزوجة أفضل وأرخص خادمة فى الوجود . منال سوف تعطيه الحنان العاطفى الذى حُرم منه ، والأمان الأسرى الذى يبحث عنه . كل شيء ممكن وجائز ما دام برضا الطرفين .!! قرر أن يحسم الموقف معها ، حتى يستريح من هواجسه . بعد العمل عاد بها إلى البيت . تخفف من بعض ملابسه ، بينما أعادت تجميل وجهها ، وتسريح شعرها من جديد .. تراءت له عروسا مشرقة ..!!

— لن تخرجى اليوم إلا بعد أن نتفق .. لقد تعبتُ من التفكير وحدى .

— خيرا .

— هل توافقين على الزواج ؟.

أطلقت ضحكة عالية : كنت أظنك أذكى من هذا .

— ماذا تقصدين ؟

— كان ينبغى أن تفهم أننى موافقة منذ حضرت إلى هنا أول مرة .!!

— ولمَ لم تقولى يا ماكرة .؟!

— أردت أن أسمعها منك . المرأة قد تجذب الرجل نحوها .. لكن الذى يرضى غرورها أن تراه متضرعا ، يطلب منها ما أرادته هى .. أليس كذلك يا روميو .؟!

— يا بنت الذين .. أنت تلميذة الشيطان .

— تلميذتك يا سيادة المدير العاااام .!!

— إذن اتفقنا .

— على المبدأ فقط .. وبقيت التفاصيل .

ـــ تقصدين الشبكة والمهر وليلة الفرح .

استرخى فى جلسته ، وفك زراير القميص العليا ، فظهرت شعيرات بيضاء فى صدره .

ـــ طبعا .. ألستُ عروسة ؟

ـــ غير معقول .. لن أزف مرة ثانية . أنا على استعداد لكل ما تطلبين إلا الأمور التقليدية .

ـــ أأهون عليك .. يا حبيبى .؟!

انتقلت إلى مسند ,كرسى الفوتيه الذى يجلس عليه . شم رائحة عطرها . أحس جسدها دافئاً ، وقلبها يخفق فى صدرها .

ـــ أحبك يا ميمى .. أحبك . لن أنسى لك هذه التضحية ، سوف أسعدك ، وأعوضك عن كل شىء .!!

ـــ لقد سحرتنى يا صافى .. أكيد أنت ساحر . أنت كل شىء لى فى هذه الدنيا .. أنت دنياى وحياتى .!!

مدَّ ذراعيه ، وجذبها إليه ، لم تقاوم . احتضنها.. سكنت العصفورة الصغيرة بين أحضان النسر العجوز ، كانت شبه مغيبة عن الوجود .. وعن الوعى ...!! أحست أنها وصلت نهاية المدى ، فارتمت فى أحضانه وتعلقت به . حملها بين ذراعيه ، ودخل إلى غرفة النوم ، وأغلق الباب فى هدوء ....!!

* * *

الفصل الثامن

فى الليلة التى اتفقت فيها مع مصطفى على كل شى .. أعطت له كل شىء . فكرت أن تمهد للزواج الجديد مع الأب .. ثم مع الأم . فى ذات الليلة حضر حسنين ، وجاء يعرض عليها الزواج . ظن ذلك المخبول .. أو المجنون ـــ فالحب حالة تُورث الجنون .. وكل أنواع الهستيريا ـــ ظن أنها تنتظره ، ولم يفهم أنه سافر ولم تقل له شيئا ، ولم تعده بشىء . عادت مرتبكة بعد أن سلمت واستسلمت . عادت وهى مهمومة لتجد أمامها هما آخر .. الأسطى (ح . ح .) ..!!

فى الليلة التالية .. بات أبوها فى المعسكر ، وفى الليلة الثالثة خرج مع الأستاذ يوسف يبحثان عن مكان أحمد ، الذى قُبض عليه . الرجل الطيب ما زال يظن أن أحمد سوف يكون خطيب ابنته . تذكرت أن أختها أمينة قالت أكثر من مرة ، أحمد موجود .. وجاء من أجلها . لماذا لا تأتى المصائب واحدة .. واحدة .؟! الدنيا كلها تقلب فى أسبوع واحد . حزنت لما أصاب أحمد .. غير أنها كانت مشغولة عن همّه .. بأنهار من الخواطر المزعجة تضطرب فى رأسها . قررت أن تكون زوجة لمصطفى بركة .. ترى كيف يكون وقع هذا الخبر المفاجئ على الأم .. والأب .؟! إنها هى التى ستتزوج ، وبالتالى فإن من حقها الاختيار . لم يعد هناك مجال للاختيار .. فقد .. فكرت .. وقررت .. ونفذت ..!! أما الباقى كله ،

فإجراءات شكلية . المهمة سوف تكون صعبة .. لكنها تعرف طريقها . إنها فتاة طموح .. تبحث عن مستقبل أفضل . فكرت للحظة فى حسنين وشعبان .. وتوقفت طويلا مع أحمد . أحمد سيطر على خيالها عندما كانت حبيسة حارة المدرسة . اليوم رأت الدنيا على حقيقتها ، الدنيا .. مظاهر .. وإمكانات ..!! تجربة الزواج عملية اقتصادية ، وقد درست التجارة وتعلمت المحاسبة . مصطفى يملك شقة .. وعربة .. ومنصبا اجتماعيا رفيعا . مصطفى هو الرجل الذى يرضى كبرياءها .. ويلائم تمردها الدائم من أجل أن تخرج من عالم الفقراء . لم تكن آسفة على أحد من الذين تخلصت منهم إلا أحمد . أوه .. أحمد شاب رومانسى ، يحلم بالمثالية فى كل شىء ، فى الحب والوطنية والحياة . تخيلت للحظة أنه شخصية هربت من إحدى روايات المنفلوطى وجاءت فى غير الزمان والمكان ..!! أين أنت الآن يا أحمد .. كم أنا حزينة من أجلك ..؟! لقد اعتقلوك يا عزيزى لأن مبادئك لا تتلاءم مع واقع خشن نعيش فيه . ليس من الغريب أن يفرز جيل النكسة هذه النماذج التعيسة .. أنا .. أنت .. حسنين .. شعبان .. سنية ..!! لم يعد من السهل وسط أيام الضباب أن نفرق بين الوهم والحقيقة .. أيام مُرة .. وجيل مضيع .. وأوضاع مقلوبة . كل فرد لا يفكر إلا فى ذاته .. ولا يدرى إن كان يسير فى طريق الممكن أم فى متاهة المستحيل ، بل لقد أصبح من السهل أن تكون الحقيقة وهما .. والمستحيل ممكنا . لا داعى لهذه الفلسفة الآن يا بنت نعيمة ..!! المهم ماذا أقول لأبى .. وأمى حتى أمهّد الطريق لزيارة مصطفى بركة ، لكى نكتب الكتاب ، وأنتقل إلى بيتى الجديد . الدنيا تغيرت ، سوف أذهب معه إلى

البيت بعد خروج المأذون . لن آخذ شيئا .. حتى ولا حقيبة الملابس . لا أريد أن أحمل شيئا يذكرنى بأيام الفقر .!!

تأخر الصول عبد الله مع الأستاذ يوسف فى رحلة البحث عن أحمد . خرجت الأم محاولة أن تقتل قلق الانتظار ، فوجدت حجرة منال مضيئة .. دخلت إليها .

ــ لم تنام حتى الآن يا حبة عينى .. أكيد مشغولة على أحمد .

ــ أحمد سوف يعود بالسلامة ، لكنى مشغولة بأمر آخر ، أريد أن أكلمك فيه وآخذ رأيك .

ــ خيراً يا روح ماما .

ــ سيكون خيراً بحق حينما توافقين .

ــ على ماذا .؟

ــ على أن أتزوج من الأستاذ مصطفى بركة .

انتفضت كأنما صُب عليها دلو ماء مثلج فى ليلة باردة .!!

ــ هل جننت يا ميمى ؟

ــ لم .؟

ــ تتزوجين رجلا أكبر من أبيك .. وكل الشبان يتزاحمون على بابك .؟!

ــ لكنى أحبه يا ماما .

ــ وأحمد الذى قرأ الفاتحة مع أبيك .

ــ الفاتحة مفتوحة يا ماما .

ــ مفتوحة يا مفضوحة .. ماذا تريدين بالضبط .؟!

— الزواج من مصطفى بركة .

— وتسودّين سمعة العائلة فى الحارة .. ماذا يقول علينا الناس .؟!

— هذا زواج يا ماما .. زواج على سنة الله ورسوله .!

— مالك أنت وسنة الله ورسوله يا كافرة .؟!

— طول عمرك لا تفهميننى .. أبى وحده ، هو الذى يفهمنى وينصفنى . عندما يأتى سوف أقول له .

— نعم ، قولى له ، حتى يعرف خيبتك الناقعة ، ويرى عاقبة تدليله لك .!!

* * *

قال الروائى — يا سادة يا كرام — تعقّد الحدث ، وتأزم الموقف .. ودخلت الشخصيات فى أشكال مختلفة من الصراع ، وكان أكثر الشخصيات إثارة للشفقة فى تلك الآونة حسنين حامد، الذى لم يتحمل وقع الصدمة ، وأصبح شخصا عبثيا ، ذا رغبة عارمة فى التدمير .. حتى تدمير ذاته — لو استطاع . ذهب إلى القرية من أجل رؤية أمه ، ثم ودعها سريعا بحجة السفر . جاء بقدميه إلى مهد الكارثة وموطن الذكريات الحزينة . فرّ من بيت الصول عبد الله ، فقد كان كل شىء هناك مضطربا وغير مريح . لم يشأ أن يقابل أحدا من الأصدقاء أو المعارف . عاودته مشاعر الغربة داخل الوطن . حاول أن يبحث عن دواء للنسيان . ارتاد الحانات والملاهى . جرب كل أنواع الشراب . الخمرة طريق النسيان ، والكأس نديم الحزين . ظل يشرب .. ويشرب . قابل صديقا قديما بالمصادفة ، لازمه كظله .. واختفى عندما تحولت الجلسة من ويسكى

وحشيش و كباب إلى نبيذ و سجائر و سميط . كان له عند الصول عبد الله ألف جنيه ، لكن كرامته أبتْ أن يسترد شيئا ، دفعه فى لحظة طيش . آثر أن يعود من حيث أتى .. لم يعد يرى شيئا يقنعه بالبقاء .!!

أخذتُ أبحث عنه كى أودعه ، ولا أتركه يرحل — وحده ليلا — فى مثل هذه الحالة النفسية السيئة . بعد جهد ولأى ، لحقت به ، وهو على وشك الدخول إلى باب المطار . أخذت ألومه على عدم الرغبة فى مقابلتى . كانت هيئته تكشف حيرته ، وتشى بأزمته . بدأت أتودد إليه في لحظات الوداع . أخيراً قال متجهما :

— ماذا تريد منى يا أستاذ .. وما الذى ذكّرك بى الآن ؟

— جئت أودعك .

— إنك غير متعاطف معى على الإطلاق ، بالطبع أنت مهتم بالمثقفين أمثالك .. أما نحن العمال الفقراء ، فإن الكتّاب الذين ينبغى أن يهتموا بنا لم يظهروا بعد . أنت كاتب مثقّف ، والمثقفون عندما ينظرون فى المرآة فلن يروا إلا نماذج باهتة لفكرهم البرجوازى .

— انسَ هذه القضية الخاسرة . لم يعد هناك فارق كبير بين الجميع .. كلنا أبناء جيل واحد .. وقدرنا جميعا واحد . انس كل شىء الآن ، وتذكر أنى معك الآن ، جئتُ بنفسى أخفف عنك .. وأودعك .. وأقول لك اهتم بنفسك ، ولا تحزن على ما حدث ، وعدْ سريعا ولا تتأخر .

— لم يعد لى مكان فى هذا الوطن .

— أنسيت أمك .؟!

— ستموت قريبا .. وينقطع كل ما بينى وبين من هنا .. كل الذين

أعرفهم سخروا منى ، ولعبوا بى ، حتى البقرة الضاحكة أم منال ضحكت علىّ ..!!

ــ لكن منال نفسها لم تعدك بشىء ، لقد صَنعتَ وهماً ثم صدّقته . لا تنس أن الحياة ليست امرأة فحسب .!!

ــ قل كلاما أفهمه .

ــ لا فائدة من الكلام إذا لم يراجع المرء نفسه ، ويستفد من تجربته . أنت عامل ممتاز .. وأتوقع لك النجاح فى أى مكان . قبل أن تكون عاملا .. أنت فلاح ، والفلاح مربوط إلى الأرض مهما بَعُد . سافر وعندما تعود بسلامة الله سوف تنصلح أمور كثيرة .

ــ ما الضمان على ذلك .؟

أخذته من يده ، وأمسكت حفنة من التراب ، تجمعت بجوار الرصيف :

ــ هذا التراب .. هو الضمان الوحيد على كل شىء ..!!

عانقته عناقا حارا .. وانتظرت حتى غاب بعيدا . لم أستطع العودة إلا بعد أن سمعت صوت الطائرة ، يتأهب لرحلة الإقلاع .!!

* * *

عاد أحمد بأجنحة مكسورة إلى مقر عمله . قلبه ينزف دماً وعقله ينضح أسى . بدا متماسكا صلب العود . جلس فى الظلام يناجى المجهول . آه .. يا حبيبتى .. أقصد يا من كنت حبيبتى ، لا أستطيع أن أفهم ما حدث . كنت أتمنى أن أراك ولو لمرة واحدة فقط .. أريد أن أعرف لماذا تترك العصفورة نهار الربيع وتطير إلى ليل الخريف ..؟! فتحت لك كتاب الحب صفحة بيضاء نقية ، لكنك فتاة متمردة . حاولت أن نلتقى لنحول

ما هو خطأ إلى صواب ونبنى بالحب عشا سعيدا . من العجيب يا منال أن سنوات حبنا هى نفس سنوات النكسة بطولها وعرضها . إلى هذا الحد تعكس الهزيمة مرارتها ، وتسودّ الحياة .. وتلوّن الأحياء ؟ يا من كنت نصفى ، النصف الآخر يسألنى .. يبحث عنك . لا فائدة .. لا أمل . الرجل الحرّ لا تصرعه امرأة .!!

فكرت .. وقررت .. أن أصون كرامتى قبل حبى . وداعا أيتها العصفورة الطائشة .. وداعا مُرًّا وحسرة أمر . حب رجل لامرأة نداء لغريزة وصوت لحيوان فى أعماق الإنسان . أخيرا عرفت الطريق إلى الحب الكبير ، الحب الحقيقى .. حب الوطن .

ليلتان قضيتهما على ذمة التحقيق فى مكان لا أعرفه .. ربما كان قسم شرطة .. أو سجن الاستئناف .. أو محكمة العدل .. أو حصن القلعة . الحبس سجن .. والسجن موت بطىء . ليلتان تعادلان العمر كله . معقول يا مصر نعذّب لأننا نحبك ، ونريد أن نخرج اليهود الأنذال ، ونعيد الأرض لأصحاب الأرض ..؟!! مصريا أم الدنيا .. لماذا كل هذا العذاب .؟! يقولون ثورة ٢٣ يوليو .. وهذه ثورة جديدة اسمها ١٥ مايو .. كثرت الكلمات والتسميات ، لكن الحقيقة الحقة .. الحقيقة الحارقة ، أن البلد فى نكسة والمناضلين فى أزمة .!!

بعد عدة ليال سوداء من التعذيب والضرب .. أخرجونا ، واحتجزوا عادل فهمى . قلبى وعقلى معك يا عادل .. لن أخون مبادئك ولن أنساك .. أنت زميلى وصديق عمرى .. لكنك الأستاذ والمثال . الحياة عطاء . الإنسان مبدأ .. شجرة الحرية لا تروى بغير الدماء . تحمل

يا عادل . ليتهم تركونى معك ، حتى ازداد صلابة وإصراراً . لست وحدك .. فالشرفاء كلهم معك .!!

* * *

ــ ما هذه الجلسة الرومانسية يا منفلوطى العصر .؟ أقول بصراحة .. تنقصك « ظلال الزيزفون » ورواية « فى سبيل التاج » . أوه .. نسيت أنت إبراهيم ناجى ، لأنك طبيب .. وحالم مثله .!!

انتزعه صادق من لجة عالمه الداخلى التى غرق فيها .

ــ شىء ما حدث لك بعد هذه الزيارة .. أكيد الحبيبة راضية عليك .. الفرح متى يا صديقى .؟!

احتار ... ماذا يقول له ؟ لو قال الحقيقة فلن يصدقه . الحقيقة أحيانا أغرب من كل خيال .. أفضل شىء يفعله الإنسان حينما لا يقدر على الإجابة ، هو أن يغير مجرى الحديث ...!!

ــ دع كل هذا وقل لى من أين أتيت الآن .. يا شقى .؟

ــ كشف خصوصى .

ــ كم أخذت .. قل الحق سوف أفتش جيبك .؟

ــ خمسة جنيهات فقط لا غير ، غدا سوف أشترى بها بطة احتفالًا بعودتك .

جاءهما صوت الشيخ حسن المطمطم يغنى موالا بصوت نشاذ :

بنًا بنا لى بيتْ ، لقيت البُنا مايِلْ
قلتُ له يا بنا البنا ليه كده مايل
قالى لا ، موش البنا هو اللّى مايل

دول ولاد الأصول همّ اللى بختهم مايل

ـــ ما رأيك فى الشيخ حسن يا صادق .؟

ـــ وراء هذا الرجل الغامض سر مجهول .

ـــ لا تفترِ على شيخ طيب .

ـــ إنه رجل أمره غريب .. ليس من أهل القرية ، لكن القرية كلها داره ، والجميع يتبركون به ويكرمونه ، مع علمهم بأنه مجذوب .. لا فائدة منه .

ـــ فى رأيى أن هذا الشيخ رمز للماضى الذى انفصلنا عنه دون أن نعرفه .. أو نفهمه ، فصار كل منا غريباً عن الآخر .. هذه هى الحقيقة ..!!

ـــ أنت متعب .. تريد أن تفلسف كل شىء .. فى رأيى أنا ، أنك تشبهه إلى حدٍ ما .

ـــ أنت دائما هكذا .. لا تفرق بين الجدل والهزل .

جلس صادق بجوار أحمد . وضع يده على كتفه فى مودة .. تمنى أن يبكى على صدره ، وأن يقول له كل ما حدث . لحظة الانكسار تهز الإنسان من أعماقه ..!! لكنه آثر الصمت .. آثر ألا يصدر أخباره السيئة إلى زميله ، ما دام لم يسأل عنها .

ـــ لماذا لا تحدثنى عن منال ؟

ـــ منال .. منال تزوجت يا صادق .

أطلق أحمد ضحكة ساخرة .. وهو ينظر إلى السماء عبر النافذة .

ـــ من الذى يهزل الآن .. لم لا تقول إنك لا تريد أن تحدثنى عنها .؟

— قلت لك الحقيقة .

— وما كان بينكما .؟

— ما كان قد انتهى إلى غير رجعة .

— كيف حدث هذا .. قل .. تكلم .. مالك تبدو بارداً مثل لوح ثلج .؟!

— ماذا تفعل لو كنت مكانى ؟

— أقتلها .. أو أفضحها على الأقل .

— من يحب لا يكره ..!!

— لك أعصاب تُحسد عليها .

— هذا قدرى وأنا راضٍ به .

— لماذا تحمل القدر أخطاءك .. بصراحة أنت أحمق أو عبيط .. يا مجنون منال .

— لا داعى للسخرية .. عين العقل أن تحترم قرار كل من تتعامل معه . هذا رأيى وأنا مقتنع به .

تمنّى أن يخلو إلى نفسه .. غير أن رفيقه أهاج آلامه من جديد .. الهمُّ ينسيه هم أعظم يا صادق . تحير للحظة هل يقول له عن تجربة الجبس أم لا ؟! خشى أن يستغلها ضده . أحس روح « فرانتس كافكا » تحيط به . ما القضية يا عزيزى كافكا ؟ إنسان هذا العصر حشرة ضالة .. تلطمه رياح الظلم من كل اتجاه .. يعاقب بلا ذنب ، ويتهم بغير دليل . الضعيف

ـ حتى لو كان الحق معه ـ كلب ضال .. منبوذ ، يفتك به الأعداء والأصدقاء على حد سواء . رغم تقديره لكافكا أدرك أن القضية أبعد مما صوّرها . القضية أن تستمر يا أحمد رغم غدر منال .. وقسوة الحبس .. وفقر الريف .. وانتهازية صادق ... وضخامة خط بارليف .!!!

* * *

الفصــل التاســع

فى مكتب مدير الشركة جلس فؤاد .. وشاب يلبس بالطو أبيض .

ــ ما أخبار المعامل يا دكتور أسامة .؟

ــ لو لم تحضر اليوم من الأجازة لأرسلت إليك .. المعامل متوقفة .. والمواد الخام غير موجودة .

ــ لماذا يا رئيس الشئون المالية والإدارية .؟

ــ لا توجد عملة صعبة للاستيراد .

ــ إذن نعطى الشركة أجازة ، ونقعد نتفرج . لا يا دكتور أسامة ، لماذا صرفت عليك الشركة حتى تأخذ الدكتوراه فى الصيدلة ، لا بد من تصنيع بديل محلى ، شركة الأمل لا بد أن تستمر .. مفهوم .

ــ المشاكل لا تحل بالخطب يا سيادة المدير . ثلاثة أرباع المواد الخام نستوردها ، لا نستطيع فى يوم وليلة أن نعوّض هذا النقص . لماذا لا تذهب إلى وزير الصحة .؟

ــ لو ذهب كل مدير إلى الوزير .. لخرب كل شىء . لا بد أن نفكر ونعمل .. أنا هنا وزير .

ــ كل شىء أصبح محزنا فى هذه الأيام ــ واصل الدكتور أسامة ــ أزمة شركتنا جزء من الأزمة الكبرى .

ــ المسئولون يقولون إن هذه سنة الحسم . (فؤاد)

— سمعنا كلاما كثيرا .. ولم يحدث شيء حتى الآن . (أسامة)

— حين أتذكر الماضى ، وأتأمل الحاضر يتقطع قلبى حزناً . الحرب بوابة الخراب ، اليوم لا نجد الدواء .. وغدا من يدرى قد لا نجد الخبز ..!! (مصطفى)

— أنا مختلف معك يا سيادة المدير .. الحرب أيضا مفتاح الخلاص . لا أمل فى أى شيء إذا لم نحارب . (أسامة)

— أرجو ألا ننتظر كثيرا حتى لا تتسع رقعة الخراب . (فؤاد)

ارتسمت آثار النكسة مرة على وجوه الرجال الثلاثة . عاد اليوم مصطفى بركة بعد إجازة شهر العسل ليفاجأ بهذا الخبر الكريه .. الشركة مهددة بالتوقف . لا بد أن يترك المكتب ، ويعود إلى المعامل . الشركة لا بد أن تستمر .. الرجال ينبغى أن يتصرفوا فى اللحظات الحرجة . استأذن أسامة بعد أن طال الحوار دون أن يصلوا إلى رأى فيما ناقشوه . صعب أن تصنع شيئا من اللا شيء .. المشكلة فى حاجة إلى تفكير هادئ .

خلا الجو للصديقين ، فقال فؤاد :

— أرجو أن تكون قد قضيت أجازة سعيدة .؟

— حينما جئت إلى هنا نسيت كل شيء .

— هناك أمر آخر .. أود معرفة رأيك فيه .

— ما هو ؟

— عظيم أن منال .. آسف المدام لم تحضر اليوم . أما زالت مصرّة على العمل .؟

ـــ كل ما فعلته من أجلها لم يغيّر من رأيها ، وما زالت ....

ـــ إذن أرجو أن توافق على نقلها من السكرتارية إلى إدارة الحسابات .

ـــ هل تغير شيء .؟

ـــ تغيرت أشياء .. سأترك لك فرصة وأرجو أن تقتنع بوجهة نظرى .

غاص المدير العام فى كرسى المكتب . أحس أن حجمه يتضاءل . ذهبت السكرة وهذا موعد الفكرة . من يأخذ ينبغى أن يعطى . لقد أخذ منال .. وتغيرت أشياء كثيرة كما يقول فؤاد .. ما الذى يجب أن تدفعه يا مصطفى .؟ حميدة وحمدى لم يعلما حتى الآن .. هل يمكن أن يكون للخبر أثر سيىء عندهما .؟ لقد فعل لهما ما لم يفعله أب ... وتحمل شراسة الوحدة حتى كبرا ... وتربيا تربية طيبة . شق كل منهما طريقه فى الحياة ، لأنى كنت لهما الأب والأم لخمس وعشرين سنة . الأزمة الكبرى هى أزمة الشركة .. أزمة نقص المواد الخام . لا بد أن يعود إلى المعامل كما كان يفعل منذ ثلاثين سنة . غريب أن البشر لا يعرفون سرعة الزمن إلا بعد أن يمر .. ويولى . المخاطر كثيرة .. لكنه يستطيع بالحكمة أن يجد طريقا للحل . رغم الأزمة .. رغم النكسة لا بد أن تمضى الحياة يا مصطفى . مثل هدير البحر فى ليلة عاصفة كان قلبه ينبض بقوة . منال جددت حياته .. عليه الآن أن يجدد حياة شركة الأمل ، التى أخلص لها طوال عمره .!!

* * *

وقفت أمينة مع أختها ماجدة تتأملان الحارة ، وقد خيّم الصمت عليها . كانتا تنتظران الوالد الذى لم يأت بعد . تزوجت منال وانتقلت إلى بيتها .. غير أن زواجها لم يكن فرحاً مثل فرح البنات ، فقد تم الأمر فى

صمت . أمسى البيت حزينا .. والعائلة صارت وحيدة ، فالجيران قاطعوهم . وانعكس حزن البيت على الأختين ، وطلب الوالد من الأم أن تشدد عليهما المراقبة فى الذهاب والإياب .

ــ لقد تأخر بابا يا أمينة .

ــ أحس أنه صار يهرب من البيت .

ــ كل شىء قد انتهى .. فلم الحزن .؟

ــ منال كانت بالنسبة له حلما كبيرا ..!!

ــ لكن ماما سعيدة بهذا الزواج .

ــ على كل ربنا يوفقها ، لا داعى للحديث فى هذه الحكاية .

رجل غريب دخل الحارة . مضى فى ثقة نحو البيت كأنه يعرف طريقه . هذا الرجل فيما يبدو لم يدخل الحارة أو البيت من قبل . بعد برهة سمعا طرقاً على الباب . تبادلتا نظرات حائرة . اتجهتا سويا نحو الباب . الطارق هو الرجل الغريب . فتحت أمينة وماجدة خلفها . حياهما وسأل عن الأب .

ــ من حضرتك .؟

ــ أنا .. أنا ...؟ ألا تعرفانى ؟!

ــ أوه .. أنت ..!!

ــ نعم .

دخل معهما إلى الحجرة . مرت لحظة صمت .

ــ هيه .. ما أخبار المذاكرة يا بنات ؟

ــ أنت الذى نسأل .. سامحك الله .!!

ـــ لم ...؟ خيراً ... ما السبب .؟

قالت أمينة : من سوء حظنا يا أستاذ أننا أصبحنا شخصيات فى روايتك ، فقد تجاهلتنا تجاهلا غير مبرر . لو أدركنا عصر الرومانسيين لصارت كل واحدة منا بطلة ، وسميت الرواية باسمها . رحم الله أيام « زينب » و« حواء بلا آدم » و« سلوى فى مهب الريح » و« لقيطة » و« بين الأطلال » و« أنا حرة » .. كل هؤلاء الكتاب كانوا يهتمون بشخصية المرأة ، ويضعونها فى شرفة عالية من بناء الرواية .!!

واصلت ماجدة : طبعا أنت تظن أننا أطفال .. لذلك أبعدتنا عن دائرة الأحداث وتيار الحب . نعم يا أستاذ أنت مؤلف قاسى القلب .!!

محاكمة غريبة لكنها فى ذات اللحظة قضية جديرة بالمناقشة . ماذا يصنع الكاتب عندما تتمرد عليه شخصياته .! أليس هذا من حقها المشروع ..! الناس فى رواية ليست حبراً يُسودّ على صفحة بيضاء . معك حق يا أمينة .. وأنت يا ماجدة . إنها لسخرية طريفة أن تلفت شخصية هامشية نظر كاتب إلى قضية خطيرة مثل هذه .! لكن الكاتب يصبح هو نفسه مثار سخرية أكثر هزلية ، لو سمح لكل فرد فى روايته أن يفرض وجوده بالحق أو بالباطل . كما أن الشخصية مهما شغلت مساحة كبيرة .. فأهم من نوعية الشخصية ، طبيعة القضية الإنسانية التى تعبر عنها ، فى إطار المرحلة التى تتحرك فى دائرتها .. والرؤية التى تعبّر عنها .!!

بينما كان يفكر فاجأته أمينة : لم لا ترد .. السكوت يعنى إقرار التهمة .!

ـــ يا ابنتى العزيزة الدنيا تغيرت ، والحياة أصبحت سلسلة معقدة من الأزمات الاجتماعية والسياسية والإنسانية .

ـــ الدنيا هى الدنيا ، هذه المشكلات موجودة منذ أيام الفراعنة ، لكن أدباء اليوم يبحثون عن الأزمات الحادة والصراعات المعقّدة . أنتم كتاب متعبون فكيف تريحون شخصياتكم .؟!

أنقذه من الدائرة التى أغلقتها عليه الفتاتان حضور الأب .. لكن أليس حضوره فى هذه اللحظة حلًا قدريا ساخرا للقضية المثارة .؟! إن أسئلة الطفل قد تحمل قدرا كبيرا من البساطة والبراءة .. غير أنه لا يجيب عنها إلا من يقدر على الصراحة والصدق . كل الأطفال يسألون : من أين جئت يا بابا .؟ لكن من ذلك الأب الذى يستطيع أن يقول لطفله الصغير إجابة مقنعة .؟! إن براءة الطفولة .. التى نسخر منها .. أو لا نعترف بها .. أو نذبحها أحيانا ، قد غابت عنا ـــ ربما لأننا لم نعشها ـــ فغاب عنا جزء من الحقيقة ، واختفى جانب من الواقع . من الأجدر أن نعترف أن بعضنا قد يدرك الحقيقة ، لكن الذى يستطيع أن يعبّر عنها بصدق هو من يملك براءة الأطفال .. أو عبث المجانين .. وكلاهما لا يعترف به الكبار العقلاء .!!

نظر إلى الصول عبد الله ، الذى بدأت عليه سمات التعب والحسرة . قطع الصمت قائلا :

ـــ مالك يا رجل ؟

ـــ لم تسألنى عن شىء تعرف إجابته .؟

ـــ الحديث عن الأحزان يخففها .

ـــ لكنك قلت مرة : الدموع لا تمسح الأحزان ..!!

ـــ ذاكرتك قوية .

ــ الحمد لله أنا رجل مؤمن .

ــ إذن لم تأخرت الليلة .؟

ــ أنا أب يا أستاذ .. آه لو يعلم الأبناء كيف يجرحون قلوب الآباء .؟!

ــ كيف .؟

ــ لا أخفى عليك ، أنا قلق جدا على منال ، وأذهب كثيرا للاطمئنان عليها قبل أن أعود .

ــ ولم تبيت كثيراً خارج البيت .؟

ــ الجيش الآن خلية نحل .. التدريبات يوميا ، والكل يستعدون للمعركة ..!

ــ هل تعتقد أن هناك معركة بحق .. كيف نحارب اليهود ، وقد هزمونا من قبل أكثر من مرة .؟

ــ أنت لا تعرف الصورة كاملة .. الجيش الآن يعتمد على الجنود المؤهلين والأسلحة الحديثة .. تصور الجنود يتدربون يوميا أربع عشرة ساعة . الكل مستعدون ، وينتظرون لحظة الانتقام .!!

ــ هل يقدر الجيش على عبور القناة واختراق خط بارليف .؟

ــ الإيمان بالحق يجعل الجندى أكثر صلابة من سلاحه الحديدى .

ــ على كل حال ليس أمامنا إلا الحرب أو الانتحار .!!

ــ أعتقد أننا قادمون على حرب سوف تغيّر مجرى أمور كثيرة .

ــ كلنا نعرف ذلك .. وننتظر لحظةً تحوّل الهزيمة إلى نصر .

ــ لى عندك رجاء .

ــ ما هو ؟

ــ أن تروى ما سيكون للأجيال القادمة .

نظر إليه نظرة حيرة وألم . ويكأن هذا الرجل البسيط يذكره بأنه لو اهتم به ، لعبّر من خلاله عن حكاية آلاف من الفقراء البسطاء ، الذين يتحمّلون كثيرا من الآلام والأزمات ، ويضحّون حتى بدفء البيت ورعاية الأبناء من أجل أن يفعلو شيئا للوطن . أيها الوطن العزيز .. كم من الجرائم ترتكب باسمك .. وكم من التضحيات تهون من أجلك ...!!

* * *

الفصــل العاشــر

أول مرة أكون وحدى منذ الزواج . اليوم صارت لى مملكة .. أصبحت سيدة بيت بحق . صدق من قال إن البيت حياة المرأة . تعالى يا أمى لترى العزّ الذى تعيش فيه ابنتك . تمنيت الرجل والبيت والعربة ... حقق الله كل ما أردت . فى الأسماعيلية قضيت شهر العسل مع مصطفى . كان شهراً يساوى العمر كله . لا أدرى كيف مر بهذه السرعة العجيبة . حققت فى هذا الشهر كل ما كنت أتمنى . السباحة فى بحر الحب حلوة لذيذة . ذات ليلة جلسنا نسمر والليل مازال صبيا . لبست قميص النوم الأبيض الذى يحبه (اللون الأبيض يا حبيبتى رمز الحب الصافى ..) ، ولبس روب نوم واسع الجيب ، فبدا بياض شعر صدره . البياض فى شعر الرجل دلالة اكتمال الرجولة . ما أُحيْلى اللقاء فى لحظة صفاء ..!! قدم لى كأساً وهو يقول : فى صحتك يا حبيبتى .

ــ تشيز مون مور .

ــ يا عينى عليك يا بنت « أمه نعيمة » ..!!

ــ Behave well فى صحبة الويسكى يا Gentel man روّق .. وهات سيجارة ، حتى تحلو الجلسة .

ــ أين تعلمت كل هذا يا منى عينى .؟! نظر إليها فى مودة .

ــ المرأة حين تحب تصبح موهوبة بالفطرة .. يا حبيبى ..!!

ــ أنت رائعة .. وضع رجلًا على أخرى .

ــ وأنت خير شاهد على هذه الروعة .

ــ أنت من سلالة العفاريت الزرق .

ــ أنت مثل كل الرجال إذا أرضتهم المرأة شقوا .. وإذا تجاهلتهم بكوا .

ــ يا شقية لم أتصور أن عندك كل هذه المواهب ، فى مدة قليلة تدخنين وتشربين ، كأنك مولودة فى خمارة ....!!

ــ ما أجمل أن تولد امرأة فى حانة يديرها الحبيب .!!

وضعت كأسها على المائدة . نظر إلىّ وهو يضع بعض مكعبات الثلج فى الكأسيْن وتناول بعض المزة .

ــ ميمى .. يا حبيبتى لم أصررت على الزواج منى .؟

أحسستُ ــ رغم خدر خفيف ــ أنه يريد أن يكتشف بعض ما فى أعماق . حقيقة أنا التى سعيت إليه .. تقربت منه .. سلمت له .. حتى أضعه ، وأضع أهلى أمام أمر وقع . المسألة ليست لغزاً يا حبيبى . أنا امرأة متوهّجة الأنوثة ، أومن أن المرأة امرأة .. وأنها خُلقت للحب .. فهل هذا شىء غريب يا حبيبى .؟! أدركت أن كل شىء قد تم حسبما أردت .. وهذه جلسة أنس ، فتعمدت أن أغيظه .

ــ عرفت أنك تعبت كثيرا من أكل لحم الجاموس والبقر وربما الحمير .. لذلك عزّ علىّ أن تموت دون أن تذوق لحمَ الغزال .. هاها .. هاها .. هاها .!!

ــ يا بنت الكلبة هذه لحظة صفاء فلم تعكرينها بذكر الموت .؟!

ــ لأننى أموت فيك يا حبيبى .!!

* * *

رغم السعادة التى أعيشها فى حياتى الجديدة إلا أننى أتوقف بعض لحظات مع نفسى .. أشفق فيها على أبى ، الذى وافق مضطراً أن يعقد قرانى فى صمت ، وأنتقل فى هدوء الليل مع مصطفى . بلا شك أبو البنات حزين من أجل ابنتيه أمينة وماجدة . مرة أخرى يمرّ طيف حسنين وشعبان .. وأحمد . صحيح أننى انشغلت فترة محدودة بحسنين وشعبان ، لكنى بعد ذلك كنت واضحة وصريحة مع كل منهما . المأساة الحقيقية تنمو بلا ريب فى قلب أحمد . أوه .. يا أحمد ، لقد أحببتك صادقة فترة طويلة من حياتى غير أن مصطفى ظهر لى كشمس ساطعة توارت بجوارها كل النجوم والقمر . أدعو الله من كل قلبى أن يوفقك ، وأن تجد فتاة طيبة تسعدك وتسعد بها . كثيراً ما كنت تشدنى إلى عالم بعيد عن أحلام فتاة مراهقة مثلى .

ذات يوم كنّا نسير فى ميدان الأوبرا .. كنت أنا مشغولة جدا بالفيلم الكوميدى الذى تعرضه سينما أوبرا ، وبالنجمة الجديدة بطلته ، التى مضت مثل الصاروخ ، تشق طريقها فى عالم النجوم ، محققة إعجاب جماهير الدرجة الثالثة من المحيط إلى الخليج ، لأنها ممثلة إغراء فاتنة . تمنيتُ أن أكونَ إياها . أما أنت يا أحمد .. فقد كنت مشغولا بتمثال إبراهيم باشا ابن محمد على ، أخذت تقول كلاما كثيرا عن وحدة الصف العربى وعن قومية المعركة .. المعركة مع اليهود ، ليست معركة حربية فحسب ، وإنما

هى معركة بين قوميات متصارعة منذ فجر التاريخ بين العرب واليهود . أخذ أحمد يشكو .. العرب أمة كبيرة العدد ، شاسعة المساحة غنية الجيب .. لكنها فقيرة النفس مشتتة .. متنازعة . العرب يا منال لا يجيدون سوى الكلام . الحقيقة أننا فى حاجة إلى إبراهيم باشا من جديد ، ليوحد بالسيف أشلاء أمة ممزقة .!!

عرفت أن أحمد صار مدمن سياسة ، وأن له بعض أصدقاء من اليساريين يتحاورون بشكل متواصل فى مصير الوطن والأمة .. فليست هناك عروبة بغير مصر .. وليست هناك مصر بدون عروبة . رغم ما بينى وبين أحمد من حب إلا أن اهتماماتنا ظلت متنافرة ، لذلك كان يسكت كثيراً ليستمع إلى ثرثرتى . أحمد له فضل علىّ — ربما لا يعرفه هو . لولا أحمد لصرت زبونة محترفة فى مدرسة أم سنية حبيبة الطلبة . إن الله أرسله فى هذه الفترة إكراما لأبى الطيب .. وأمى المسكينة . أنت إنسان عظيم .. يا من كنت حبيبى .!!

* * *

فى بيت متواضع من بيوت حىّ « المنيب » بالجيزة ، جلس الشيخ عثمان قطب .. يلقى درسه — كالعادة — مساء كل خميس . الحاضرون أكثرهم من الشباب ذوى اللحى الكثيفة ، وقد حرص بعضهم على ارتداء جلباب قصير وطاقية بيضاء ..

... نحن فى زمن نسى فيه الناسُ الكثيرَ من أمور دينهم ، إنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وغرتهم الحياة الدنيا وغرّهم بالله الغرور . لقد كرم الله سبحانه وتعالى آدم بأن علمه الأسماء كلها ، وكرم ذريته بأن حملهم

الأمانة ــ أمانة الإيمان والعقيدة .. وأمانة الحق والواجب ، فقد قال ــ عزّ من قائل ــ ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، إنه كان ظلوما جهولا ﴾ .. والإنسان ذلك الذى يصفه رب العزة بأنه ظلوم جهول ، فى حاجة دائمة إلى من يذكّره .. وقد ورد فى قول مأثور ما معناه « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة ، من يجدد لها دينها » ؛ من هنا يجب أن يكون لكل مسلم داعية ومرشد ، يعرفه حدود الأمانة ، وأصول الرسالة . إن الشيطان شيخُ من لا شيخَ له ، لذلك يجب أن نعتصم بروح الإسلام الحنيف وسنة الرسول الكريم ، حتى يعود لهذه الأمة مجدها .. وتهزم أعداءها .

لقد ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ، وأصبحنا غرباء فى ديارنا .. ودنس أرضنا أعداؤنا .. و

عزتْ السلعةُ الذليلةُ حتّى بات مسحُ الحذاء خطْباً جساما

أى ذل ننتظر بعد ذلك ، إذا لم نتصد للفساد ونوقف تيار الضلال .؟!

ــ هذه مسئولية من يا سيدنا الشيخ .؟

ــ مسئولية المسلمين جميعا .. ألم تسمع قول رسول هذه الأمة يقول : « من رأى منكم منكراً فليغيّره بيده ، فإن لم يستطع بلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . إن الذى يرى المنكر ويرضى عنه شيطان أخرس يا إخوانى .. أى والله شيطان أخرس .!!

ــ أى منكر ذلك الذى نحن مطالبون بتغييره .؟

ــ وجود الأعداء فى بلادنا أمر منكر .. كل انحراف من كبير أو صغير

أمر منكر ، ونحن جماعة المسلمين مطالبين بتغييره . إن الإسلام يا إخوانى دين ودولة ، يأمر المسلم بأن يعمل لصالح الدنيا والآخرة .. أى أن الإسلام عبادة وجهاد .

ــ لكن هذا قد يجعلنا نفكر فى مشكلات سياسية أو اجتماعية ، ونتدخل فى أمور لا شأن لنا بها .

ــ هذا هو التواكل الذى أضعف المسلمين وفرّق صفوفهم . ثقوا أيها الأخوة المؤمنون أن الذى يعمل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، سوف ينجيه الخالق الذى يتوكل عليه ، فمن توكل على الله كفاه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ....!!

خرج شعبان مع صديقه علاء بعد أن حضرا درس الشيخ عثمان . مشيا على طريق النيل باتجاه الجيزة يقطعان الطريق بالحديث ، ويملآن الفراغ بالكلام .

ــ ما أخبارك يا أخ شعبان .؟

ــ لا شيء على الإطلاق .. شاب جامعى مع إيقاف التنفيذ ، لا حب .. لا عمل .. لا أمل . تصور أستاذى أرسل لى خطابا من المنفى ، يطلب منى أن أصبر ، وأن أواصل الدراسة إلى أن يعود .!!

ــ فكرة طيبة .

ــ الدنيا كلها أمست مثل حارة المدرسة طريق مسدود ، لا أدرى كيف يكون حالى لو لم أتعرف عليك ؟!

عاد متأخرا إلى البيت ، فوجد الأب والأم فى انتظاره .

ــ لم تأخرت يا بنى .؟

ـــ صليت العشاء وجلست أسمع درسا فى الدين .

ـــ كل هذه الدراسة فى الأزهر ، ولم تعرف دروس الدين بعد .. عجيب .!!

سكت دون أن يجيب ، كان مشتت الفكر مهموما . درس الشيخ يهزّ كيانه ، يجعله يحس أنه مسئول مسئولية خاصة ، إزاء كل منكر فى هذا المجتمع الفاسد الذى يعيش فيه ، فقد استشرى الفساد فى كل أنحاء البلاد ، ولا أمل إلا برفع راية الجهاد .!!

ـــ لم لا ترد يا ولد .؟

ـــ اهدأ يا رجل .. الوقت متأخر ، دعه يستريح .

ـــ أنت نائمة على أذنيك ، ولا تعرفين السر وراء هذه اللحية ، التى أطلقها ابنك .

ـــ هذه سنة عن الرسول الكريم يا أبى .

ـــ لا بد أن تحلقها .

ـــ لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .

ـــ تعصى أمرى يا ولد . اسمع دون مناقشة ، واحدة من اثنتيْن : إما أن تحلقها .. أو .. أو تترك البيت ..!!

وقف شعبان ساهما ، فقد نزل عليه الأمر كالصاعقة .

ـــ قم لننام .. وفى الصباح يحلّها الكريم .. يا أبو شعبان .!!

ـــ قلت اخرسى يا امرأة ، هذه اللحية ستقود الولد الذى صرفنا دم قلبنا لنعلمه إلى السجن أو الموت .. فماذا تختارين .؟!

ـــ فأل الله ولا فألك .. يا رجل وحّد الله ، ابنى ولد طيب ، وسوف

يطيع والده . وضعت يدها على كتفه فى مودة .

ـــ لقد كبرتُ .. ومن حقى أن أفكر بالشكل الذى أريده .. يجب أن تعلم أنى لا أرتكب إثما ، حين أتمثل مبادئ الدين وأهتدى بسنة الرسول الكريم .

ـــ أسمعت يا امرأة .. ولدك عنيد .. أفسدوا عقله . نقل نظره بينهما فى غيظ .

ـــ لا تقل هذا يا أبى .

ـــ لا تناقشنى . قلت لك أمرى واضح وعليك أن تختار .

مضى نحو الباب فى هدوء ، وهو يردد فى خشوع :

ـــ « سلام عليك سأستغفر لك ربّى ، إنه كان بى حفيا » .

خرج فى صمت بأسرع ممّا يذوب فص ملح فى محيط زاخر . انهارت الأم باكية ، أُسقط فى يد الأب ، وسكت كأنما أصابته صاعقة مباغتة .!!

* * *

يا سادة يا كرام : أسعد الله صباحكم بكل خير ـــ إذا وصلتم عند هذا الجزء من الرواية فى الصباح ، وعطّر الله مساءكم بكل جميل إن كنتم فى المساء .. فإنى أود أن أعتذر لكم عن طول الرواية ، فما قصدتُ ذلك ، فأنا ـــ مثلكم ـــ أعرف أن الإعجاز فى الإيجاز ، وأننا فى عصر سريع الإيقاع متوتر الأعصاب . لكن شخصيات الرواية ـــ الذين اجتمعت بهم منفردين ، قبل الكتابة ـــ يصرّون على أن يبرز دور كل منهم مهما كان يسيرا . (بالطبع ـــ وهذه ملاحظة خاصة بينى وبينكم ـــ استمعتُ إليهم جميعا ، لكننى راجعت الوثائق والأحاديث بعد ذلك ، فوجدت أن روايتها

تحتاج إلى ألف ليلة وليلة) .

عقدت النية على أن ألتقى بالملازم أول على يوسف ، خاصة وأن ملاحظة أمينة وماجدة ما تزال ترن فى رأسى . وقد شجّعنى على ذلك أنه نُقل من مركز ملوى بالمنيا إلى القاهرة .. وقد ساعده فى هذا النقل مأمور المركز ، الذى سوف يزوجه ابنته .

ــ ما الذى ذكرك بى الآن يا أستاذ .؟

ــ لم أستطع زيارتك فى المنيا ، فقلت أعوّض هذا التقصير بعد قدومك إلى القاهرة .. حمداً لله على سلامتك .

ــ أخيراً تذكرت ، لو أن لى قصة حب ما تجاهلتنى طوال هذه المدة .

ــ أنت مشغول بحب أكبر يا على .

ــ هذه تهمة جديدة .؟

ــ بل شرف قديم .. حب الواجب أكبر من أية عاطفة . على كل حال ، ما زلت شابا فى أول الطريق . بيدك أن تحقق ما تريد .

ــ كيف يمكن ذلك وأنا ممنوع من الاشتغال بالسياسة بحكم القانون ، ومحكوم علىّ بعدم الحب بسبب المهنة ، وصعب علىّ الزواج بفضل الفقر .؟!

ــ القانون قد يحرم من الاشتغال بالسياسة ، لكنه لا يحرم عليك أن تفكر فيها . أما المسائل الخاصة فأنا أعرف أنك شاب عملى يعرف ما يريد ، ويحققه بأقرب الطرق .

ــ إذن فأنت موافق على زواجى من فوزية ابنة المأمور .

ــ أتحبّها ؟

ضحك من الأعماق .. وسعل وهو يبتلع دخان سيجارة .

— حرام عليك ، قطران السجائر أتعب رئتيك .

— ماذا قلت يا أستاذ ؟ حبّ .. أى حب تعنى ؟ إنها فتاة مقبولة شكلا ومضمونا .. وعندها شقة وأبوها رجل غنى . الزواج ليس حبا ، وإنما حسبة مالية دقيقة . فى رأيى أن الحب الحقيقى ينشأ بعد الزواج بحكم المسئولية والحياة المشتركة .!!

— وضّحْ ما تعنى ؟

سكت برهة ثم أردف : لن أذهب بعيداً .. أنت تعرف أحمد أخى ، كان يحب منال حبا ملتهباً ، لكن منال أحبت أحمد الفقير ، وعند الزواج اختارت مصطفى الغنى ، بالطبع هذا ليس صدفة ، وإنما دليل واضح على صدق ما أقول .

— أتنكر قصة حب عاشت كل هذه السنين ؟

— لم يكن حباً .. وإنما أحلام مراهقة . من فضل الله أنهما لم يتزوجا .

— لماذا ؟

— أحمد أخى وصديقى .. أنا أعرفه جيدا . أحمد ومنال فى رأيى وجهان متقابلان لظروف واحدة .. هى تدليل الأسرة — ولا سيما الأب — للابن البكر ، لكن رد الفعل عند كليهما مختلف أشد الاختلاف ، منال أفسدها التدليل وجعلها فتاة متمردة على كل شيء ، أما أحمد فقد حاول أن يبدو بصورة مثالية أكثر من اللازم .

— وجهة نظر .

— ما أقوله حصيلة تجربة وخبرة مع قاع المجتمع من اللصوص

والكذابين والبغايا والمحتالين .

ـــ مؤهلاتك عظيمة بالنسبة لضابط شرطة فى بدء حياته .

ـــ كل رؤسائى قالوا لى هذا .. لكن ألا ترى أنك تهرب من السؤال .. ما رأيك فى الزواج من فوزية ؟

ـــ وأنا أعيد عليك نفس السؤال : هل تحبها .؟

ـــ قلت لك إن الحب شىء والزواج شىء آخر ، الحب هذا شىء لا تجده إلّا فى الشعر والروايات . ألا ترى معى أن المجنون لو تزوج ليلى ما كتب فيها بيتاً من الشعر .؟!

ـــ على كل حال ليس المهم أن تحب امرأتك قبل الزواج ، لكن الأهم أن تحبها بعده ..!!

ـــ أخيرا اتفقنا . بقيت قضية شكلية ، أنا متردد فى مفاتحة أبى .. ربما رفض بحجة أن أحمد الكبير لم يتزوج ، لكن أحمد لم يجند بعد ، ثم إن أمامه فترة طويلة حتى يفيق من الصدمة .

ـــ ما رأيك لو جعلت أحمد هو الذى يطلب منه ذلك .؟

ـــ عظيم .

ـــ مبروك يا على ، قصدى يا سيادة الملازم .

ـــ لا بد أن تحضر العـرس ، ستكون أول المدعوين ، لا تنسَ ، الخميس الأول من الشهر القادم .

* * *

الفصل الحادى عشر

أقام فريد عبد الله الصحفى بجريدة « الأخبار » حفل تهنئة لصديقه مصطفى بركة بمناسبة زواجه ، دعا إليه بعض الأصدقاء القدامى : حلمى مسعود ، مخرج سينمائى متزوج من سيدة إيطالية ، وفؤاد متولى مدير الحسابات بشركة الأمل وزوجته دانية . قالت عائشة زوجة فريد ، وهى تنظر إلى منال :

— بصراحة .. زوجتك قمر يا باشمهندس .

قالت منال فى رقة : ميرسى مدام .

جمعت الجلسة بين الأصدقاء القدامى ، نادراً ما يلتقون ، فالحياة مشاغل ، والدنيا زحمة ، غير أنهم ينتهزون بعض المناسبات التاريخية الخاصة ، لكى يتجمّعوا ويحتفلوا بها . سكرت الزوجة الإيطالية فصاحت فيهم :

— كلام .. كلام .. لا تشبعون من الكلام والشرب . أريد أن أرقص ..!!

لعبت الخمر بالرؤوس .. ولعبت الرؤوس بالأكف .. ولعبت الأكف بالتصفيق .. ولعب خصر المرأة الغجرية .!! أثناء رقصها شدت منال بالقوة لتشاركها الرقص على موسيقى أغنية « فرانجو آراب » :

يا مصطفى يا مصطفى أنـا بحبّك يا مصطفـى
سبع سنين فى العطّارين إنت حبيبى يا مصطفى

ـ زوجتك موهوبة يا أبو درش .

ـ تصور يا شيرى هذه أول مرة أرقص !!

هذه أول مرة ترقص فيها أمام غرباء ، كثيراً ما كانت ترقص وحدها .. أو مع بعض زميلات لها .. أو فى بعض مناسبات سعيدة خاصة . نظر إليها حلمى فى دهشة :

ـ يبدو لى أن عندك مواهب أخرى غير الرقص ، يخيل لى أن وجهك فوتوجينيك خالص . ما رأيك يا حلوة ، تعملين معى ؟

ـ أين .؟.. تساءلت وهى تنظر إليه فى ضوء خافت .

ـ فى السينما سأجعلك بطلة الفيلم الجديد .

ـ قبل أن تسأل البطلة .. اسأل صديقك البطل ؟

ـ نجوم السماء أقرب لك . ردّ مصطفى وهو يضع الكأس فى عصبية .

ـ حرام أن تحبس هذا العصفور الجميل .

ـ حبس العصفور أفضل من أن تخطفه الغربان .!!

ـ أنا غراب يا أبو قردان ؟

ـ لا .. أبو حلموس .

ذهبت النسوة لإعداد العشاء .. وجلس الرجال وحدهم .

ـ ما رأى الكاتب الكبير فى الحالة السياسية .؟ (فؤاد)

ـ جئنا إلى الغمّ . (مصطفى)

ـ قالوا إن هذه السنة سنة الحسم .. ولم نسمع أى خبر حتى الآن عن

المعركة . (حلمى)

ـــ أى رئيس جديد يظل مشغولا لفترة طويلة بإعادة تنظيم دولاب الحكومة ، حتى يضمن أن الكرسى مستقر تحته . وأعتقد أن السادات قد ضمن الرئاسة فى جيبه بعد ١٥ مايو ، وبقيت أمامه مشكلتان ..

ـــ ما هما يا أستاذ فريد .؟

ـــ المعارضة التى تحمل بعض اتجاهات يسارية ، وأظن أنه يحاول القضاء عليها بإبعاد كل الناصريين واليساريين من الساحة .. خاصة فى مجال الإعلام والثقافة ، ثم تشجيع بعض الاتجاهات الدينية ، لكى يضرب اليمينُ اليسار .. أو يصفّى أو يضعف ـــ على الأقل ـــ كل منهما تأثير الآخر .

ـــ المشكلة الثانية ؟

ـــ مشكلة التحالف الدولى ، تعلمون أن كتلة العالم الثالث .. أو ما يسمّى شعوب العالم الثالث أو الحياد الإيجابى .. هذه كتلة وهمية ، وتجمّع هولامى ، لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا فى حسم أية مشكلة خطيرة وساخنة مثل مشكلتنا . يبقى بعد ذلك المعسكران الشرق .. والغربى . علاقات مصر منذ سنة ١٩٥٦ مرتبطة ارتباطا كبيراً بالمعسكر الشرق ، لكن هذا المعسكر يشك فى صدق انتماء الحكومة الجديدة فى مصر له .

ـــ هل معنى هذا أن السادات سيتحالف مع أمريكا .؟

ـــ فى اعتقادى أن الروس أنفسهم قد يضطرونه إلى هذا .

ـــ لكن الجيش يعتمد على السلاح الشرقى . (حلمى)

ـــ هذا جزء كبير من المشكلة .. ولا أظن أن هذه السنة ستكون سنة الحسم كما أعلن السادات .

ـــ المشكلات الداخلية كثيرة .. وكلها مؤجلة من أجل المعركة . إذا لم تتم الحرب فى الجبهة ، فليس من المستبعد أن تنفجر ثورة داخلية بسبب الغلاء .. وأزمة المساكن .. والتموين .. والمجارى .. والتعليم .. وغير ذلك الكثير . (فؤاد)

انفجر مصطفى قائلا بضيق ، وهو يتأمل ضوء شمعة كادت تنطفىء : الجدل الذى تديرونه بينكم بلا جدوى الآن ، يزيدنى إيمانا بأن التفكير فى السياسة أمر يؤدى إلى السجن أو الانتحار .!!

ـــ ما الحل إذن .؟ (فريد)

ـــ السياسة لا يمكن التفكير فيها إلا فى ظل حياة ديمقراطية .. لأن الديمقراطية ممارسة حقيقية لجميع جوانب الحياة ، حتى وأنت تتعامل مع زوجتك أو ابنك . الديمقراطية هى الحل ...!!

جاءت الزوجة وصوتها يسبقها :

ـــ العشاء جاهز .

* * *

قطع أحمد علاقته بالقاهرة .. القاهرة مصدر أوجاعه . ماذا يريد منها ؟.. منال هربت .. وضاعت . الزملاء الذين كان يجتمع بهم تفرقوا . ما فائدة الكلام وكل شىء على حاله .. بل ربما أسوأ مما كان عليه ؟! هؤلاء الشباب ممزقون بين المذاكرة .. والفكر اليسارى وتقويم تجربة

عبد الناصر فى الوحدة العربية .. والحرب مع اليهود . لا فائدة من الكلام .. اليهود لن يخرجوا بالكلام ، والديمقراطية لن تتحقق بالمنشورات السرية ..!!

أمر آخر ، جعله أكثر حيرة .. وهو تجربة الحبس الأخيرة . صحيح أنه لم يثبت عليه شيء ، غير أنه قضى أربع ليال وثلاثة أيام ، ذاق فيها المرّ والويل .. ورأى وجها كريهاً من وجوه رجال الأمن لم يعرفه من قبل . أخيرا طلق الحب والسياسة ، وأدرك أنه يعمل على تقدم الوطن بالإخلاص لرسالته الإنسانية . أسعده هذا الفهم الجديد للعمل الوطنى . فى الريف عيون مليئة بالرمد والصديد ، وبطون تسبح فيها ديدان الانكلستوما ، وكلى تجرى فيها جراثيم البلهارسيا ، ورئات ملوثة بالغبار والدخان ، وقلوب ضعيفة ، ودماء فقيرة .. الفقر وصل إلى الدم ، ورغم كل ذلك فإن وزارة الصحة ترى أن الأسبرو والسلفا والنوفالجين .. وشربة الدود .. وشراب الحديد .. وحقن البلهارسيا والبنسلين ، تستطيع أن تداوى كل هذه الأمراض التاريخية المستوطنة . أدرك أن الوقاية خير من العلاج ، فأخذ يزور أهل القرية محاولًا نشر الوعى الصحى بينهم . صار واحدا منهم . أحس بسعادة غامرة ، وهو يعيش هذه التجربة الفريدة ، تجربة حب العمل وفتح القلب لكل البشر .!!

كان يرى صدى النكسة وأزمة الغلاء فى كل بيت .. وعلى كل وجه دون كلام ، الحقيقة أقوى من أى كلام . حالة اللا سلم واللا حرب شلت حركة الناس ، وجعلتهم يتطلعون بشوق إلى يوم الثأر .. الثأر من العدو الغادر . اليهود حينما ينزلون بأى أرض تحل اللعنة وينزل الخراب .

أدولف هتلر كان على حق حينما حرقهم وقضى عليهم .

ذات مساء جاءه الشيخ حسن المطمطم . طلب كوبا من الشاى ، قذفه — وهو ساخن — فى حلقه مرة واحدة ، ثم أخذ يترنم بأغنية شعبية :

شعرهـــا ضانى ضانى   لقّيتـــــه على حصانى
وحصانى فى الخزانـــة   والخزانة عايزة سلـــم
والسلـم عنـد النجّـــار   والنجار عايز مسمار
والمسمـار عنـد الحدّاد   والحداد عايـــز بيضه
والبيضة عنـد الفرخـه   والفرخه عايزه قمحه
والقمحـه عنـد التاجـر   والتاجر ماهوش قادر
والقـــدره عنـــد الله   مدد يا رسول الله

هذا المجذوب يكشف له عن حقائق غريبة .. لا شيء فى هذه الحياة يبدأ من فراغ .. أو ينتهى إلى فراغ . أى شيء له علاقة بكل شيء . إذا انصلحت ناحية .. ناحية واحدة فقط ، سوف ينصلح كل شيء ..!! لكن من أين يبدأ الإصلاح ؟ الإصلاح يبدأ من حيث أنت موجود .. أصلح نفسك ينصلح الوجود كله !!

— متى تسافر إلى مصر يا دكتور .؟

— لماذا يا شيخ حسن ؟

— أريد أن أرى السيدة زينب بنت النبى .!!

— خيرا .

أسند المجذوب ظهره إلى الحائط ، ووضع العصا بجواره ، وأخذ يعبث فى لحيته البيضاء الكثيفة ، ثم استطرد :

ـــ منذ زمن لم أزر أهل البيت .. مدد يا طاهرة مدد . اسمع يا عبد الله.

ـــ اسمى أحمد يا شيخ حسن .

ـــ لا تقاطعنى يا عبد الله (ضرب الأرض بعصاه فى غضب) .. أهل البيت غير راضين عنا .. وهذا سبب ما نحن فيه ، الملك فاروق ....

ـــ عصر الملوك انتهى .

ـــ انت غبى ومقاوح .. يا عبد الله . اذهب إلى الملك ، وقل له يعمل مولد للسيدة الطاهرة ، حتى ترضى على برّ مصر وتنكشف الغمة .

ـــ ولم لا تأتى معى وتقول له أنت .؟

ـــ أنت متعب .. يا عبد الله ، مدد يا أهل البيت .. الرضا يا سيدة يا طاهرة .. مدد .. مدد يا أهل البيت مداد .. مداد ....

ركب عصاه مثل الحصان وانطلق تائها فى الظلام .

* * *

بات فؤاد أم شعبان فارغا يتشقق . غاب الولد الحبيب شهرين كاملين . ظل الوالد يكابر ويعاند . أخيرا هدّه القلق والأرق . أخذ يبحث عنه فى كل مكان ، بلا جدوى . هكذا يا شعبان أربيك يا ولدى البكر ، لتكون الزند الذى أعتمد عليه ، يا للمصيبة بعد أن تكبر وتأخذ الشهادة الكبيرة تهدّ حيلى .!! لم أعد قادراً على تحمل الحيرة والأسى المرسومين ليل نهار على وجوه إخوتك : الناس حسدونى .. يا ناس يا شر هذه عاقبة خلفة الذكور ، الولد الكبير العاقل يخرج عن طوعى أنا ، أنا أبوه الذى تحملت الذل لكى أبنى له ـــ ولإخوته ـــ بيتا ، وأحفظه كتاب الله ، وأعلمه فى الأزهر الشريف .!!

هكذا يا شعبان ، سامحك الله يا بنى .! أين أنت الآن .؟ كيف تأكل وتعيش .؟ أستغفر الله العظيم من وسوسة الشيطان الرجيم . يا رب يا متجلّى ارحمْ ذُلى ..!! عد يا شعبان وافعل ما تريد .. المهم أطمئن أنا وأمك المسكينة وإخوتك المعذبون . آه يا ولدى .. آه . يا أولاد الحلال .. لماذا تعذّبون آباءكم ، الذين أتوا بكم إلى الحياة لتكونوا مصدر سعادة .. فإذا أنتم الغمّ نفسه . عينى عليك يا شعبان ...!!

مع مطلع نهار جديد ، رآه عباس بائع الخضر ، يحوم كالغريب حول الحارة . جاء شعبان يرى البيت من بعيد ، بعد أن صلى الفجر . تعمد أن يأتى فى هذه اللحظة المبكّرة ، حتى لا يراه أحد . تعلّق به عباس :

ـــ هكذا يا شعبان .. أبوك قلب الدنيا كلّها بحثاً عنك . الحمد لله .. ربنا أرسلك من أجل خاطر أبيك الطيب وأمك المسكينة .

لم يجد عباس مقاومة شديدة فى أن يعيده إلى البيت .. عندما التقى العزيز الغائب بأهله تكلّمت الدموع غزيرة .. وعجزت كل الألسنة عن أن تنطق حرفا واحدا .!!

* * *

عندما وصل الزوجان إلى البيت بدا على مصطفى بعض الإرهاق . خلعا ملابسيْهما . تطاول الزوج على السرير استعداداً للنوم ، فقد أحس اضطرابا واضحا فى حركة القلب ، بينما جلست منال القرفصاء على السرير بقميص نومها الوردى الشفاف .

ـــ لم لا تنامين ؟

ـــ أود أن أتحدث معك .

ـــ أنا متعب .. أجّلى كل شىء إلى وقت مناسب .
ـــ استرخْ .. وحاول فقط أن تسمعنى .. وأن تفهمنى .
ـــ قولى . أغلق عينيه .. وفتح أذنيه .. وحاول أن يجذب الغطاء .
ـــ اسمع يا صافى .. لقد أحببتك .. وتزوجتك دون أن أطلب شيئا .. أى شىء على الإطلاق . أنت بالنسبة لى تساوى الدنيا كلها . لكن حدث أمر جديد ، يجب أن نحسب حسابه .
ـــ خيراً .
ـــ أنا حامل يا حبيبى ..
انتفض كمن لدغته حية رقطاء . هب واقفا صائحا .. غاضبا ..
ـــ مستحيل .. غير ممكن ، أنت مجنونة . اتفقنا على الزواج ، ولم نتفق على الخِلفة .
ـــ اهدأ يا حبيبى . وتعال نتفاهم بالعقل .
ـــ هل بقى عندى عقل ، حتى أتفاهم به معك يا مجنونة .؟
ـــ لماذا ؟
ـــ لم فعلت شيئا لم نتفق عليه .؟
ـــ أى اتفاق تعنى ؟
ـــ أن يكون لنا أطفال .
ـــ ما نحن فيه علاقة زواج أم عشق .؟
ـــ لا أضمن يا مجنونة .. لا أضمن أن أعيش حتى أربى هذا الطفل الذى تريدينه .. قد يعيش يتيما .!!

جرت دموع حارة على خديها . أول مرة تبكى منال ..منال .. المدللة .. المتمردة ، عرف البكاء طريقه إلى عيونها الجميلة ..

ـــ من أجل هذا أردت أن أتحدث معك . أنا زوجة ومن حقى أن يكون لى طفل .؟!

ـــ هذا الطفل لا بد أن يسقط .

ـــ مستحيل .. إنه ثمرة حبنا وزهرة زواجنا .

ـــ حبنا حماقة .. وزواجنا جنون .!!

ـــ اعترف .. وقل إنك لم تعد تحبنى . أمى حذرتنى ، الرجل لا يخضع إلا لامرأة تذلّه ، وتفرض عليه شروطها منذ البداية .

ـــ ليتك سمعت كلامها .

ـــ يا ليت .. لكن الأمر كان قد خرج من يدى .

ـــ ميمى يا حبيبتى .. صدّقينى أنا خائف عليك أنتِ ..!

ـــ لذلك أطلب منك الأمان .. والضمان . إننى لم أطلب منك مهراً مقدما أو مؤخرا .. ولا توجد قشة فى البيت باسمى ..!!

ـــ ماذا تريدين على وجه التحديد .؟

ـــ فكر أنت إزاء المسئولية الجديدة .

روح المغامرة قد تدفع الإنسان أحيانا إلى التحدى والعناد . وتحلو المغامرة للإنسان إلى أن ينتصر على ما تصوره معركة .. وعند الانتصار فقط تبدأ المأساة الحقيقية ، ويكتشف أنه انتصر على نفسه .. وليس لها .!!

استطاع مصطفى بركة أن ينتصر على المراهقة الأولى مراهقة الشباب .. لكن المراهقة الثانية مراهقة الرجولة هزمته .. استسلم لها ، عليه الآن أن يدفع الحساب . ظل عاقلا فترة طويلة ، كان الزواج فيها

مطلوبا ، والإنجاب معقولا . تمنّى لو عاد الزمان إلى الوراء سنة .. سنة واحدة ، ليعدّل مسار حياة عكرتها فتاة طائشة . ترى ماذا سيكون موقف حميدة وحمدى من الأخ المنتظر .؟ تاهت أمام العينين المرهقتين معالم الأشياء .. لم يعد يرى منال .. ولا أى شىء فى الغرفة . علا صوت أنفاسه . استرخى فى مكانه .. فاقد الحركة والوعى . أخذت تحركه .. يمينا ويسارا .. وتصيح .. وتصيح ، غير أن القلب العجوز داهمته المفاجأة فسكت إلى أبد الآبدين ....!!

* * *

الفصل الثانى عشر

مات الرجل الذى ضحت من أجله بالدنيا وما فيها ، وضعت بيضها فى سلة واحدة .. وهذه هى العاقبة ، انكسر البيض والسلة فى آن واحد .! اكتملت السقطة المدمرة بأن تأتى ابنتها نائلة . انقلب أهل المرحوم كلهم عليها . جاء حمدى وأقام معها فى الشقة ، هنا أثاث العزيز الراحل .. وهذه شقته . لن تأخذهما هذه العاهرة مهما ادعت أنها زوجة شرعية .. وأم لطفلة بريئة . بدأت الحرب الساخنة والباردة .. المباشرة وغير المباشرة . بدأت معركة ضارية لتحدد من هو الجدير بإرث المرحوم . كانت مشغولة بآلام الحمل والموت . جاء حمدى بحجة أنه لا بد أن يكون فى البيت رجل ، يحمى الأرملة الحزينة ، ويرعى شئون الوليد القادم . معلوم .. وواجب ، فالدم لا يكون ماء . كذب .. وألف كذب ، الدم أحيانا يكون صديداً وقطرانا وزفتا . أزمة المساكن متحكمة ، أهل حمدى زرعوا فى رأسه بذور الحرب ، وشجعوه على طرد الغازية .. الطامعة .. العاهرة ، وابنتها التى تدّعى أنها ابنة المرحوم . رجل على مشارف الستين طلق الزواج منذ ربع قرن ، من يصدق أنه قادر على الإنجاب ؟ هذه المرأة اللعوب .. أكيد وراءها نوايا عدوانية خبيثة . حمدى حينما يرى أسرة منال خاصة الأب والأم ، يبالغ فى إظهار حبه لأخته وزوجة أبيه :

ــ يا عم عبد الله اطمئن على مدام منال .. لولا أنها صغيرة لقلت إنها فى

منزلة والدتى. نائلة أختىّ وأمها فى عينىّ هاتين . اطمئن .. ولا تشغل بالك .!!

أمينة .. وماجدة صارا يخافان منه .. فهو يعاكسهما صراحة أمام منال . حاول أن يقبل ماجده بالإكراه ، وهى تعدّ الطعام فى المطبخ . لم تعد واحدة منهما قادرة على أن تعيش مع أختها المريضة وابنتها الرضيعة . أكثر من هذا كان يحضر شلة من الأفاقين كل ليلة ، يدّعى أنهم أصدقاؤه ، يسهرون معظم الليل يشربون .. ويلعبون الكوتشينة والطاولة .. ويسمعون الراديو بصوت عال . بلغ من جرأته ذات مرة أن أحضر امرأة .. وأراد أن تبيت معه فى الشقة .

ــ يا حمدى كل شىء له حدود .؟

ــ هذا تهديد أم ماذا ؟

ــ لسنا فى حرب حتى يهدد كل منا الآخر .. نحن عائلة واحدة .

ــ جميل جدا .. كنت ناسيا هذه الفكرة العظيمة ، فوقى يا بنت الناس ، نحن غرباء .. غرباء ، ولا تربطنا أية صلة على الإطلاق .

ــ أنا زوجة أبيك وأم أختك .

ــ هذا الكلام قلته فى المحكمة الشرعية ، وأخذتِ المعاش كله يا مفترية .. رضينا بالهمّ ، لكن الهم الآن غير راضٍ بنا .

ــ يا حمدى احترم ذكرى المرحوم .

ــ ما أفعله يا بنت الناس هو من أجل ذكرى المرحوم .. هذه الشقة ستظل باسمه .. واسم ابنه الشرعى .. ابنه الحقيقى .. أنا ، أنا فقط لا غير .. مفهووم ؟!

ارتمت على السرير باكية . تداخل صوت بكائها مع بكاء نائلة ، بينما وقفت شريفة الخادمة تطيّب خاطرها .

* * *

ما دار بخلدها يوماً أن تصل إلى هذا المصير البائس . عاشت طوال عمرها ـــ رغم الفقر ـــ أميرة غير متوجة . ظلت تحلم بالغنى وتسعى إليه .. وها هى الآن طير جريح فى شقة بالزمالك . لم تكن تدرى أن عالم الأغنياء كريه إلى هذه الدرجة . ما أشبه حالها بحال الوطن .. مصر كما قال لها أحمد ، تعيش مرحلة مائعة يسمونها حالة اللا سلم واللا حرب . صارت هى الأخرى فى نكسة . فهى أرملة عذراء .. وأم فى حاجة إلى أم .. من المسئول عن كل ما حدث .؟ أحمد قال لها إن النكسة سببها استهتار يصل إلى حدّ الخيانة ،وفوضى تبلغ درجة الجريمة . جيش قوى جرار هزمته عصابة من الأفّاقين . صدق من قال « جيش من الكلاب يقوده أسد ، أفضل من جيش من الأسود يقوده كلب » .!! لا تدرى لم استيقظ فى ذاكرتها كل ما قاله أحمد « إنى لأعجب كيف يمكن أن يخون الخائنون .. أيخون إنسان بلاده .؟ إنْ خان معنى أن يكون .. فكيف يمكن أن يكون ؟ » . أحست بقدر من السلوى ، وهى ترى نفسها صورة بائسة لواقع حزين . اختارت المستحيل .. وها هى تعود إلى كل ما هربت منه . لو اطلعت على الغيب لاختارت أحمد .. بل إن مصيرها لو ارتبط بشعبان أو حسنين فلن يكون أسوأ مما وصلت إليه الآن . شعرتْ بالعزاء

وهى ترى نفسها واحدة من جيل النكسة .. الذى عاش المأساة واكتوى بالأزمة .!!

* * *

صرحت لأمها ألف مرة ومرة أنها تريد أن تترك البيت ـــ السجن بكل ما فيه ، لكن الأم كانت تحرّضها على المقاومة والدفاع عن حقها .. وحق ابنتها فى الحياة . إن مصيرها إلى الزواج ومن يرضى بزواج أرملة ، إذا لم تكن تملك شيئا يغرى بها .. وأى إغراء مثل شقة فى الزمالك .؟!

ـــ اسمع يا حمدى .. أريد أن تفهمنى ، يجب أن نعيش فى سلام .

ـــ السلام بين مصر واليهود أقرب من السلام بينى وبينك .

ـــ إلى هذه الدرجة ، تحارب أختك ، وسيدة فى مقام أمك .؟

ـــ الزمى حدّك .. هذه ابنتك وليست أختى ، ثم أنت ضعيفة فى الحساب ، لأنى أكبر منك بسنتيْن يا ماما .. هاها ... هاها .

ـــ أنت غبى .. وأحمق .!!

حاولت أن تلطمه ، فأمسك يدها بقوة ونظر إليها فى غيظ وغضب : لا تدفعينى إلى مزيد من الجنون يا عشيقة أبى .!!

انزعجت الطفلة على صدرها من الصخب والصياح . الطفلة التى لا تعى شيئا بعد ، أزعجها صوت المعركة .

ـــ بعد اليوم لن أسمح لك بالبقاء فى بيتى يا كلب .. هذه الرضيعة رأسها برأسك .. وسوف أطردك من البيت .

ـــ ألم أقل لك إن ذاكرتك ضعيفة ، ليست معك أية ورقة تثبت أن لك خيطا أو إبرة فى هذا البيت .

الكلب العقور يساوم من منطق القوة .. أهله كلهم وراءه حتى أمه ، وهى وحيدة بعد أن رحل أبوها مع وحدته إلى معسكرات القناة. هو شاب متفرغ .. وهى امرأة جريحة . اغفرى لى أيتها السماء ، لقد عذبتُ كثيرين ، غير أن ما أعانى منه اليوم شىء فظيع .. فوق طاقة البشر . نحن فى عالم كله كلاب .. كلاب مسعورة . من يصدّق : أخ يريد أن يطرد أخته ، التى لم يجف رباطها السرى بعد إلى الشارع ؟ هذا زمن النكسة وعصر الجياع . أشد الناس غنى أكثرهم جوعا . ترى هل النكسة مسئولة عن كل ما نحن فيه .. أم أن هناك أسباباً أخرى هى نفسها سبب النكسة وسبب الخراب الأخلاقى الذى نعيش فيه .؟!

كما خرجتْ من حارة المدرسة فى الليل .. عادت إليها فى الليل أيضا . يوم خرجت كانت أحسن حالا .. ها هى تعود حاملة طفلتها الصغيرة . وسعتها الحارة المسدودة الفقيرة بالجيزة بعد أن ضاق بها الحى الأرستقراطى بالزمالك . آه .. يا مصر لقد تغير كل شىء حتى النيل ، ذلك النهر المقدس تغيّر لونه وطعمه ، صار هزيلا بالنسبة لمجراه . أيتها السماء رحمة بى فلست أول غاوية فى هذا الزمان ...!!

* * *

جلس الوالد يوسف البدراوى فرحا بعودة ولديه . على ولد عفريت أرسل برقية يستدعى أخاه فجاء على عجل . تعشوا وشربوا الشاى .. وذهب الأخوان إلى حجرة الذكريات .

ــ أغلق الباب جيدا يا دكتور ، أريد أن أدخن سيجارة فى أمان .

ــ تغيرت كثيرا يا على .

— العمل يفجّر فى الإنسان طاقات لا يعرفها — فى نفسه — أثناء الدراسة ، العمر الحقيقى يبدأ بممارسة العمل .. ومواجهة الحياة .

— صرت فيلسوفا أيضا يا حضرة الملازم . لقد جعل منك الصعيد رجلا مسئولا .!

— ليس هذا تأثير الصعيد .. وإنما تأثير المهنة ، ضابط البوليس يتعامل مع الخارجين على القانون والنظام ، ويجب أن يستعمل دائما عقله . إذا أبعدت تأثير العاطفة عن نفسك فسوف تأخذ دائما القرار الصحيح ، لذلك كنت أكفأ ضابط فى مركز المنيا ، واكتشفت الخيوط الضائعة فى أكثر من جريمة غامضة .. لكن المأمور أصرّ أخيراً على نقلى إلى القاهرة .

— لماذا ؟

— عرف المجرمون وتجار المخدرات أنى مشهور بالقسوة والجد ، خشى علىّ المأمور خاصة بعد أن جاءنى أكثر من خطاب تهديد .

— يبدو أن هذا المأمور يحبك .

أطفأ السيجارة وهو يرمقه فى مودّة : مازلت مثالياً يا أحمد . الحقيقة أن التى تحبنى هى ابنة المأمور ، وأبوها مبارك لزواجنا ، والعروسة لها شقة مؤثثة .

عانق أخاه بحرارة : مبروك يا أخى ألف مبروك .

— أبوك غير موافق .

— لا تشغل بالك .

— لهذا أرسلت إليك .

— كل شىء سيتم حسبما تريد .. ألف مبروك .

صمت أحمد وهو يتأمل أخاه ، الصورة الضدّ له . منذ كان طالبا يمارس شخصية الإنسان العملى المحب للحياة . لا يفكر فى شىء إلا من أجل فائدة مباشرة . حتى المذاكرة لا يبدأها إلا فى آخر السنة ، حيث يقرأ الأجزاء المتوقعة فى الامتحان فقط ، ومع ذلك ينجح بمستوى جيد ، لا يتلاءم مع لعبه . أما أنا الولد الجاد فكنت أحفظ كل ما بيْن الغلافين فى جميع المواد . المرأة فى نظرى غزال شارد يبحث عن الألفة والأليف .. والحب أهم شىء فى حياتها . أما على فيراها لبوءة تبحث عن أى ضبع . قرأت فى الفلسفة والسياسة والأدب بحثا عن الحكمة والمنطق والثقافة ، أما هو فكان يقرأ الناس ويتعامل مع الواقع بمنطق الولد الفهلوى . كنت فى رأيه صورة حالمة تذكره بإبراهيم ناجى .. وكان هو فى تقديرى ، مثلا رائعاً للولد الجدع ، الذى يحاول أن يفهم كل شىء ، ويأخذ دائما دون أن يعطى . منذ الإعدادية قرر أن يدخل كلية الشرطة وحقق ما أراد . كيف نكون أخويْن ونحن على هذا القدر من التباين ؟ تذكر أسطورة قابيل وهابيل . ما كان فهو ما يكون .. وما سيكون ، لكن أكثر الناس لا يفهمون .!!

أحس بضيق .. تمنى أن يشم بعض هواء نقىّ . حياة الريف جعلته يحس أن الشقة ضيقة جدا . همّ واقفا :

ـــ إلى أين يا دكتور .؟

ـــ أبحث عن أبيك فسوف أحدثه الآن . (كان يحاول فتح الباب ..)

ـــ وإذا لم تجده .؟

ـــ أعود بعد قليل .

شيء ما يدفعه إلى الخروج ، ليس هو الرغبة فى محادثة الأب . فرح عندما لم يجده . قابلته آمال خارجة من المطبخ :

— أبيه أحمد .

— نعم يا حبيبتى .

— منال .

— ما لها .؟

— جاءت اليوم لتعيش فى بيت أبيها .

أراد أن يستردّ هيبته المضيّعة : طيب .. وأنا مالى .!

مرق من الباب هارباً .. من أى شيء .. لا يدرى ..! سار وحيداً وشارع النيل . لم يكد يمضى عدة خطوات حتى التقيا . لم يكن اللقاء صدفة ، وإنما تعمده المؤلف ، الذى حاول أن يتحاشى — لفترة طويلة — لقاء بطل روايته ، خشية أن يتهم بالتعاطف معه .

— مالك يا أحمد .. لم أراك متوتراً بهذه الدرجة ؟

— عندما رأيت أخى على اليوم أحسستُ بمدى عجزى وضعفى .!!

— يا رجل لا تكن حساساً إلى هذه الدرجة ، ولا تحمّل الأمور فوق ما تحتمل .

— أود أن أشكرك مرتين : الأولى لأنك أعطيتنى دور البطولة .. والثانية لأنك جئت فى هذا الوقت المتأخر تسأل عنى ، ولكن دعنى أسألك لماذا رسمتنى بهذه الصورة .؟

أمر يدعو إلى الدهشة أن تثور الشخصيات الرئيسية والثانوية على مبدعها . ماذا أقول لهم .. لن أقول شيئا ، سوف يفهمون ..

ويقدرون .!!

ــ دعك من هذا فأنا الذى أريد أن أسألك لماذا كل هذا البُعد عن القاهرة .؟

ــ لأنها تذكّرنى بالعجز والانكسار . روح النكسة تسرى فى كل مكان .. وعلى كل الوجوه . أما فى القرية فأتناسى كل شىء حتى نفسى ، وأذيب أحزانى فى زحمة العمل والناس .

ــ ما رأيك فى الخبر الذى قالته لك آمال .؟

ــ تقصد هى ....؟

ــ نعم هى منال .. صار اسمها الآن ثقيلا على لسانك .

ــ الصفحة التى كتبناها لن تعود ، لأنها مزّقتها بغير رحمة . لن أعود يوما إلى إنسانة فضلت غيرى علىّ . أنسيت يا أستاذ أم أنك تريد أن تفقع مرارتى ؟!

ــ لم .. خيرا إن شاء الله ؟

ــ أنسيت أنى كنتُ الواسطة لها كى تعمل فى هذه الشركة ، أرفعها إلى السماء وتقذفنى إلى الأرض . لا .. لا يا أستاذ كل شىء يمكن التسامح فيه إلا الخيانة . الخيانة أدنأ من الحرب ، والفتنة أشد من القتل . العدوّ يحاربك وأنت مستعدّ لمحاربته ، حتى لو لم تكنْ مستعدا .. فهو عدوٌّ لك على كل حال .!! أمّا الخائن .. فإنه يخونك وأنت آمن له ومطمئن إليه . الخيانة هى سرُّ كل ما نحن فيه .. النكسة .. الأزمة .. الغلاء .. ضياع منال .. كل هذا بسبب الخيانة .

ــ ما دمت منصفاً إلى هذه الدرجة فلم تركت عادل فهمى وجماعته ،

ولم تعد تسأل عنهما . أليست هذه خيانة للمبادئ التى تعاهدتم من أجل نشرها .؟

باغته السؤال .. لكنه أجاب بلهجة الواثق :

ـــ لا فائدة من الكلام .. سوف أُجنّد بعد فرح على ، لقد أخفيت الخبر عن الأهل ، حتى يفرحوا مرة واحدة فى العمر ، تنسيهم بعض ما يعانون ..!!

ـــ كنت خائفا عليك لأنى لم ألتق بك منذُ مدة . الآن عندى ثقة فى أنك سوف تكون واحداً من الذين يصنعون المستقبل .

ـــ المصائب كلما اشتدت اقترب موعد الفرج ..!!

* * *

بعث فرح على يوسف فى بيت الحاج عوضين قدراً من المودة ، التى ذبلتْ بين الأسر الثلاثة ، التى تعيش فيه ، وأحيا روح الألفة التى كانت تربطهم من جديد . التقوا جميعا فى بيت الأستاذ يوسف يهنئونه ، ويدعون لبعضهم بمزيد من الأفراح والليالى الملاح . الجميع حضروا إلا منال . مشغولة بابنتها الوليدة ـــ يا حبة عين أمها ـــ التى صارت لها الأم والأب . من يصدق أن منال الحلوة يحدث لها كل ما حدث يا أم أحمد .؟ هكذا قالت نعيمة .

تحاشت الأم أن ترد لكى لا تعيد ذكر حديث لا تودّه .

تغيرت روح شعبان بعد أن عاد وحلق لحيته ، حتى لا يغضب أباه مرة ثانية . تعجب أحمد كيف لم يفهم شعبان طوال هذه المدة .؟ أخبره شعبان أنه سوف يجند قريبا .. فهذا خير من البطالة التى يعيشها . الدفاع عن

الوطن لا يجب أن يكون بالكلام ، وإنما بالفعل .!!

ــ تغيرت كثيراً يا شعبان .!!

ــ هذا من فضل الله يا أخى أحمد .

ــ ورسالة سيبويه العصر الحديث .؟

ــ كل شيء يمكن تأجيله إلا نداء الوطن .

ــ أنا سعيد بك يا شعبان ، سوف نكون صديقيْن عزيزين .

ــ عندما يعرف الإنسان طريقه .. يرى كل شيء على حقيقته .

* * *

بينما يحتفلون جميعا بالعرس كانت منال وحدها ، تجترّ ذكرياتها الأليمة . لا فائدة من الندم .. أو الحسرة . الحياة ينبغى أن تمضى وتسير . ذهبت اليوم إلى العمل . ظلت قلقة إلى أن ذهبت إلى مكتبها . كانت تخشى أن يشمت فيها بعض الموظفين ، لكن الجميع قابلوها معزّين مصبرين ، يعرضون عليها ما تريد من خدمات ــ أى خدمات ، فالمرحوم أياديه على الجميع لا تُنسى ، وأفضاله على الشركة لا تُحصى . تعجبت كيف يحترم الغرباءُ ذكرى المرحوم ، ويهدرها أهله بكل سخف وصلافة . غريبة .. عجيبة ، تلك الدنيا التى نعيشها ..!!

دخل عليها الأب . وضعت إصبعها على فمها ، حتى لا يتكلم لأن نائلة نائمة . خرجت معه إلى الصالة ، بعد أن أضاءت الأباجورة .

ــ كيف حالك يا ابنتى .؟

ــ بخير .. أنا بخير يا بابا . اطمئن علىّ .

ــ إياك أن تزعلى من أى شيء يا ميمى . أنت أعز البنات وأحبهن . لن

أحرمك من أى شىء .؟

ـــ ربنا يحفظك لنا يا بابا .. ويطيل عمرك .

ـــ كنت أتمنى أن أظل بجانبك ، لكنك تعلمين الظروف ، الجيش الآن يتدرب تدريبات مستمرة ، ويقولون إن المعركة قادمة .

ـــ صحيح يا بابا ..؟

ـــ إن شاء الله يا ميمى .

ـــ هل يمكن أن نهدّ خط بارليف .؟

ـــ كل شىء ممكن .. المهم العزيمة الصادقة .

سادتْ بين الرجل وابنته لحظة صمت . كانا وحيدين فى الشقة بعد أن ذهبت بقية الأسرة لحضور فرح على يوسف فى نادى الشرطة . أحس بانكسار شديد فى هذه الليلة التى حركت أشجانه وأحزانه . كم كان يحلم أن تكون لمنال ليلة مثل هذه ، غير أن الأقدار حطمت حلم منال الطبيبة .. ومنال العروسة ـــ التى ترفع رأس أبيها . لم يكن يدرى سر خيبة أمله فيها .. هل هو السبب أم هى .. أم الظروف .؟! كيف يكون هو السبب ، وقد تغرب فى كل معسكرات الجيش البعيدة عن المنطقة المركزية ، لأن العمل بعيداً يضاعف الراتب ، ويكفل للأسرة حياة معقولة . لكن الأمر الذى لم يدركه الصول عبد الله جيدا ، هو أن الأسرة تحتاج إلى الرعاية والتربية قبل الغذاء والكساء .!!

كانت نفسه حزينة .. لذلك صمت وهو جالس مع ابنته . آه .. لو يعلم الأبناء كم يتعذب الآباء من أجلهم .!! لم يكن يدرى علام يحزن .؟ فكل ما حوله يدعو إلى الحزن .. والرثاء .؟ قضى حياته كلها فى الحرب

من أجل الوطن .. لكنه لم يجد من يحارب له . منال ذهبت إلى بيت زوجها بهمّ . وعادت بهمّين . ماجدة وأمينة كيف سيكون مصيرهما فى الزواج بعد مأساة منال .؟ أخيراً .. الوطن .. الجيش .. الحرب .. الحياة بعيدا عن الأسرة على شط القناة .. انتظاراً للمعركة التى يقولون إنها قادمة . خاض حرب ١٩٥٦ ، وحرب ١٩٦٧ .. وما زالت هناك معركة أخرى . حرب .. حرب .. الحياة كلها صارت معركة مستمرة بالنسبة إليه . أحس الرجل أن القدر يعانده ، وأنه لم يسترح لحظة منذ ترك حياة القرية التى فرّ منها . الفقراء دائما تعساء .. البؤس وراءهم فى القرية ، وأمامهم فى المدينة ، حتى لو ذهبوا إلى آخر الدنيا .!!

خشى على نفسه من التردى فى بئر الأحزان . فردد بينه وبين نفسه « اللهم إنى لا أسألك ردّ القضاء ، لكنى أسألك اللطف فيه » . توجه نحو الحمام ليتوضأ ويصلى .. ويطرد وساوس الأحزان .

اختلست منال النظر إليه ، وهو يمضى فى انكسار شديد . هالها ما بين اليوم والأمس ، حينما كان يختلى بها لا يكفان عن الضحك والمزاح .. أما اليوم فلم يجد كل منهما ما يقول للآخر سوى عبارات المجاملة ونظرات الرثاء . لقد شاخ الصول عبد الله الموجى ، وهو لا يزال فى الخمسين .. ولم يحصل على نجمة الملازم ، التى كان يحلم بها منذ زمن بعيد . تمنت أن تقبّل قدميه ــ لا يديه ، وتقول : سامحنى يا أبى بقدر ما أسأتُ إليك . سقطت دموع على خديها ، فانسلت إلى الحجرة ، حتى لا تزيد من أوجاعه وآلامه .

* * *

الفصل الثالث عشر

فى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر سنة ١٩٧٢ ، اشتعلت مظاهرات الطلبة عاصفة عارمة فى كل جامعات مصر . وعدت الحكومة أن تكون هذه سنة الحسم ، لكن السنة انتهت ولم يحدث شيء .. ولم يسمع صوت طلقة واحدة على الجبهة . امتدت المظاهرات وتدخل جنود الأمن المركزى والشرطة . بدلًا من أن تقوم المعركة فى سيناء قامت فى الجامعة .. وانتهك جنود الشرطة بالعصىّ والقنابل المسيلة للدموع حرمة الحرم الجامعى . كانوا فى الجيزة يسمعون صوت الهتافات والمتفجرات .

ـــ كثير من الناس لا يفهمون طبيعة شعب مصر يا حاج عوضين ـــ واصل الأستاذ يوسف ـــ البعض يظنون أنها تركع أمام المصائب والمظالم ، وينسون أنها تستعد لتقيم معركة حامية لا تبقى ولا تذر . لو كان هناك شعب فى هذه الدنيا يستحق تمثالًا فهو شعبنا .

قال شعبان : إن الله كرم مصر .. فهى أكثر بلدة ذكرها سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم ، وقد ورد اسمها فيه خمس مرات فى أربع سور هى : « البقرة والزخرف ويوسف ويونس » .

ـــ هذه المظاهرات بداية لأمر عظيم ـــ واصل أحمد ـــ وأدعو الله أن ينيلنى شرف المشاركة فى المعركة القادمة .

ـــ سنكون سوياً بإذن الله .. يا دفعة .

— متى سوف تدخل الجيش يا شعبان .

— خلال هذا الشهر يا عمّى يوسف .

— يعنى مع الدكتور أحمد وسيخلو البيت منكما سوياً يا أحبائى .

(قال الحاج عوضين فى نبرات حزينة) .

* * *

جلست منال تداعب طفلتها نائلة . الحياة مضت رتيبة فى الشركة . العمل صار المتنفس الوحيد . منال الحلوة الشقية هدتها الأيام ، أصبحتْ مجرد موظفة تؤدى عملها الروتينى فى صمت . لم تكن تطيق أن تمرّ على حجرة المدير الجديد ، ولا تستطيع أن تدخل عليه للتوقيع على أى شيء . مستحيل أن ترى أحداً غير المرحوم يشغل هذا الكرسى . كل شبر فى هذه الحجرة أعدته بذوقها الخاص . إيه .. دنيا .!!

هل حقاً هذه حارة المدرسة .. ما لها تبدو تعيسة هكذا ؟ أحمد وشعبان وأبوها تركوا الحارة إلى معسكرات الجيش . على انتقل إلى بيته الجديد . ماذا لو عاد الزمان سيرته الأولى ؟ زهرة البنفسج الفوّاحة صارت أرملة ، انفض سوق الحبّ والشباب . كل الأحباب رحلوا فى صمت .. حتى حسنين حامد ، رحل هو الآخر بعيداً .. وتاه فى حيّ من أحياء الدوحة القديمة .!!

هل يمكن أن يعود واحد من الذين رفضتهم : أحمد مستحيل ، إنها تعرفه جيدا ، بركان هادر يكسوه سطح أملس . شعبان .. ابتسمت فى داخلها .. وهى تستعيد صورة كاريكاتورية لحركاته الصبيانية معها .. ولا هذا أيضا يمكن أن يعود . لم يبق سوى حسنين حامد . جدتها عندما

كانت صغيرة قالت حكمة لا تدرى لم تذكرتها الآن « المرأة إذا أرادت أن تتزوج فيجب أن تختار الرجل الذى يحبّها ... وليس الرجل الذى تحبّه هى » . كلام كثير يمرّ علينا فى الحياة ونظن أننا نسيناه ، عندما تحدث أزمة لها علاقة به نستدعيه ، كأنه نقش على حجر فى الذاكرة . ماذا كانت جدتى تريد أن تقول على وجه التحديد .؟ المشكلة أننا أبناء هذا الجيل نشكل جزراً معزولة .. تائهة فى بحر بلا ضفاف .. لم يعد أحد يعجبه سوى صوت رأسه الأقرع . كلام الآباء والأجداد نظن أنه موضة قديمة ، وميراث عهد مضى وانقضى . كل هذا عبث وقبض الريح يا جدتى . ليت أيامكم دامتْ .. أيام الخير والبركة ، والأسر المترابطة مثل صرح شامخ .. لكن ماذا تفيد « ليت » مع جيل النكسة — يا جدتى العزيزة ..؟!

* * *

فى « فريج ابن عمران » بالدوحة ، ذهب حسنين لزيارة بعض أصدقائه من العمال والموظفين المصريين . الغربة تجعل الروابط التى تربط المغترب بوطنه مثل حبال صلبة . كلما طالت مدة التغريب زادت الروابط قوة ومتانة . الحديث عن الوطن هو مصدر الأسى ومنبع السلوى فى آن واحد . عجيب أن يعذب الإنسان من معين ينبغى أن يكون سبب سعادته وسر وجوده . مرّ الشتاء غاضبا فى مصر .. اعتقل كثير من الطلبة ، لأنهم ذكّروا الحكومة والحاكم بأن تكون هذه سنة الحسم كما أعلنوا . بعض الكتّاب الأحرار كتبوا عريضة احتجاج ، ورفعوها إلى رئاسة الجمهورية .. مؤيدين موقف الطلبة ومطالبين بالإفراج عنهم ، وقد نشر الاحتجاج فى صحيفة كويتية خلال النصف الأول من شهر مارس ١٩٧٣ .

ـــ يخيل إلىّ أن مكاننا هذه الأيام ليس هنا ، لم لا نفكر فى العودة ؟ مصر فى حاجة لنا .

ـــ ماذا تقول يا حسنين ؟

ـــ إذا كان كل واحد يبحث عن حل فردى لمشكلته الخاصة .. فمن يدافع عن الوطن .؟

ـــ وماذا نفعل نحن الآن يا أخى .. إن ما نفعله هنا هو من أجل مصر .. وأهلنا فى مصر .

ـــ من قال إن المصرى وطنه مصر فقط .. المصرى مصرى وعربى ، عليه التزامات من أجل بلده ، وعليه التزامات أيضا من أجل أمته .

جاء يبحث عن تسلية وسلوى فخرج ضائقا صدره . يوم سافر من مصر أعلن أنه لن يعود .. وهو الآن يتحرق شوقا من أجل العودة . تذكر جزءاً من موال يردده هريدى كثيرا :

الراجل الحرّ فى هذا الزمان تَعْبَان
يبات يقول آه مع غُلب الزمان تعبان

أشتاق إلى مصر كلها .. وإلى كل من فيها حتى الشيخ حسن المطمطم . أحس أن قلبه صار رحباً يتسع للكون كله . يا أحبّائى فى مصر .. لقد غفرت لكم جميعا وصفحت عنكم ، حتى منال .. كم كنت قاسيا عليها . كل إنسان من حقه أن يختار شريك حياته ، لماذا هُيّئ لى فى لحظة أن الدنيا كلها ليس فيها سوى منال .؟! منذ فترة جاءه خطاب من قريب ، يخبره أن منال عادت إلى بيت أبيها . فى موجة الصفح والتسامح التى غمرته .. أحس أنه غير غاضب ، وأنه لن يتخلى عن زيارة أسرة الصول عبد الله

عندما يعود . المرء يبحث فى الحياة عن صديق .. أو حتى رفيق ، فكيف يقطع أواصر تربطه بأهله .؟ أهلك حتى لا تهلك يا حسنين . اتضحت أمام ناظريه كثير من معالم الحياة . لولا تجربة الغربة لما صار واضح الرؤية ناضج الشخصية بهذه الصورة التى أصبح عليها . مشى عائدا .. يتمثل حديثه الأخير مع الكاتب عندما حمل بعض تراب الوطن . تخيّل مطار القاهرة .. والأهرام .. وشوارع الجيزة .. ومسجد القرية .. وهتف من أعماقه : عمار يا مصر .!!

* * *

جلس النقيب على يوسف فى مكتبه بقسم الدقى . تمنّى أن تمر الساعة الباقية وتنتهى خدمته فى الحادية عشرة مساء .. ليعود بعدها طائراً إلى شقته بالمهندسين ، حيث تنتظره عروسه فوزية ابنة المأمور . عندما جلس مع بعض المهنئين من زملائه قال أحدهم :

ـــ شقة وعروسة ونقل وترقية مرة واحدة يا على .

فأجاب آخر فى سخرية : يا بخت من كان المأمور نسيبه .!!

تذكر المرة الوحيدة التى التقى فيها بالكاتب . عزت على نفسه . لم أخرجنى من دائرة الأحداث ؟ عندى الكثير الذى كان يثرى الرواية بما فعلته فى الصعيد مع جرائم الثأر والسرقة والمخدرات . استدرك أن شخصية ضابط الشرطة تعجب أكثر أمثال أجاثا كريستى ومخترع شخصية شرلوك هولمز واللص الظريف ، وغيرهم من كتاب الرواية البوليسية . إن رجل الشرطة يعرف الوجه الكريه لأى واقع اجتماعى ، وهو أمين على كثير من تفاصيل هذه الحوادث ، التى يرتكبها الشواذ

والأفاكون والمحتالون ، والخارجون عن القانون .. إن أى مجتمع لا يسمح بنشر ملابسه الداخلية أمام الآخرين . التمس بعض العذر للكاتب — أيضا — لأنه كان غائبا فى الصعيد أثناء سرد كثير من أحداث الرواية .!!

ما هذا .. غير معقول .. من هذه السيدة التى دخلت فى صحبة ضابط مباحث واثنين من أمناء الشرطة .؟ هناك شخص عربى معهم . حملق أكثر حتى تصدق عيناه .. منال عبد الله الموجى صارت واحدة من نساء الليل . استر يا رب .. احتار هل يراها فيجرحها إنسانيا ويجرح حياءها . أى حياء .. وقد وصلت الأرملة الشابة بقدميها إلى قسم الشرطة .؟ تخلى عن هذه الخاطرة ، وآثر أن يشعرها بقدر من الاطمئنان ، فقد تكون فى محنة وكم فى الحبس من مظاليم .!!

طلب من زميله ألا يدخلها حجرة الحجز . جلست فى مكتبه . كما طلب منه أيضا أن يُحسن معاملة الأخ العربى ، وأن يستبقيه هو الآخر فى حجرة مجاورة إلى أن يعرف حقيقة الأمر .

— الحكاية كلها يا سيادة النقيب أن مسئول الأمن فى فندق شيراتون أرسل إشارة مؤداها أن سيدة شابة فى الخامسة والعشرين من عمرها ، لم يسبق حضورها إلى الفندق ، دخلت حجرة سائح عربى فى ساعة متأخرة نسبيا من الليل (الساعة ٢٠٠٠) مساء اليوم (٢٣ مارس ١٩٧٣) . وقد أبلغت الإشارة ساعة تاريخه للعلم ، واتخاذ ما تراه إدارة البحث مناسبا . وعليه فقد قمت فوراً بالقبض عليهما وأحضرتهما إلى هنا ، لاستكمال الإجراءات اللازمة .

— هل يوجد شىء مريب .؟

ـ ماذا تقصد .؟

ـ أنت تعرف جيداً ما أقصد ...!!

ـ لا .. لم يكن هناك شيء مريب .

ـ إذن لم قبضت عليهما .؟

ـ تنفيذاً لما جاء فى الإشارة .. أنا عبد المأمور يا أفندم .!!

طوال عمره لم يسترح إلى هذه البنت المائعة ، حتى عندما كان يحبها أخوه أحمد . أحمد الآن فى كلية ضباط الاحتياط . تعال يا دكتور لترى المرأة التى كنت تنوى الزواج منها .!!

جلس مع منال فترة قصيرة . طلب منها أن تحكى له كل ما عندها ، حتى يعرف ما إذا كانت متورطة فى شيء أم لا ؟ استمع إليها جيدا .. وهى تحكى له بقدر من الثقة . حمد الله أن المسألة بسيطة .. مجرد شك فى خلوة بين امرأة ورجل . تركها مع المحقق حتى يأخذ أقوالها . الشغل شغل .. كل من يأتى إلى القسم لابد أن يعمل له محضر ، ثم يحوّل إلى النيابة إن كان التحقيق يشير إلى تجريم من أى نوع كان .. أو يحفظ المحضر ، إنْ كان الأمر مجرد شك ومن باب الاحتياط .. فالاحتياط واجب ، والشرطة فى خدمة الشعب ، من أجل الحفاظ على الأمن .. والأمان .!

بعد أن انتهت إجراءات التحقيق المبدئى معها ، طلب من أحد السائقين أن يوصلها إلى البيت ، حتى لا يثير تأخرها أىّ شك عند أهلها .

ـ لا أدرى كيف أشكرك يا على .؟

ـ أشكرى الله أولًا .. لولا أنك بريئة لما التقيت بك مصادفة هنا .

ـ لن أنسى لك هذا الجميل .

ـــ المهم حافظى على نفسك . أنت الآن أم . لا داعى للمغامرة يا أم نائلة . أرجو ألا يعلم أحد فى البيت على الإطلاق .

ـــ ولا حتى أحمد عندما تقابله ..!

ـــ هذه أسرار يا أختى ونحن أمناء عليها . مع السلامة .

أكيد زوجته فوزية أكثر سخونة من العشاء الدسم الذى تعده فى هذه الليلة الباردة . بقيت دقائق لابد أن يجلس فيها مع الأخ العربى ـــ فيصل سلمان . أعطاه سيجارة وأشعلها له ، حتى يُشعره بقدر من الأمان .

ـــ ما الحكاية يا أخ فيصل ؟

ـــ يا أخى ـــ طال عمرك ـــ لا حكاية ولا يحزنون . أبدا ما فيه شىء . عندى أكثر من صيدلية فى الكويت ، وأتعامل مع شركة الأمل التى تعمل بها الأخت منال منذ مدة طويلة . أعجبت بها .. أردت أن أتزوجها ، وتقابلنا كى نتفاهم .

ـــ يا رجل .. قل كلاما يدخل الرأس ، الذى يريد أن يتفاهم مع امرأة من أجل الزواج ـــ إن كان كلامك صحيحا ـــ يتفاهم معها فى غرفة مغلقة . عيب يا ريّال ..!!

ـــ ماذا كنت تريد منى .؟

ـــ تذهب إلى أهلها .. هذه هى الأصول ، نحن جميعا عرب ولنا تقاليد يا أخى .!!

ـــ قبل هذه الخطوة الرسمية كان لابد من الاتفاق معها فى التفاصيل .

ـــ لماذا .؟

ـــ لأنى متزوج ..!

— ألا ترى أن كلامك فيه قدر كبير من التناقض .؟

— كيف يا طويل العمر ؟

— متزوج .. وتريد أن تتزوج مصرية ، مع أن الكويت فيما أعلم فيها أزمة عنوسة حادة .

— الزواج عندنا مكلف جدا .

— إذا تزوجت منال .. هل تضمن أن تأخذ لها تأشيرة إقامة دائمة .؟

— سأحاول .

— أشك أن محاولة مثل هذه قد تنجح . المهم أرجو أن تفكر فى حل مشاكلك من داخل مجتمعك وبين أهلك . الحلول المستوردة لا تحل أى قضية . شيء آخر أود قوله لك .

— خيراً .

— أن تبعد عن منال لأنها قريبتى .

— عجيبة وايد .. يا أخى طال عمرك .!!

* * *

عاد أحمد إلى البيت فى أول إجازة ، بعد أن انتهت فترة التدريب الأولى فى كلية ضباط الاحتياط . عمت الفرحة البيت ومن فيه . كل الجيران جاءوا لرؤيته ما عدا منال . دخل أخوه على معه الحجرة .. حجرة الذكريات .

— كيف حالك يا دفعة .؟

— بخير .. المهم أنت . فوزية فتاة طيبة أرجو أن تهتم بها . أنت الآن زوج ويجب أن تحافظ على بيتك .

ــ من هذه الناحية ، ضعْ فى بطنك بطيخة صيف ، أنا زوج مثالى .. وأحب زوجتى جدا ، خاصة وأنها حامل .

ــ نعم .. ماذا تقول .؟

ــ ما زلت تحمل براءة الأطفال يا حمادة ، أليست هذه سنة الحياة .. زواج .. وأطفال . هكذا الدنيا .

قام وعانقه بحرارة قائلا : مبروك يا على . طرقت فوزية الباب قائلة : أدخل أم أنكما تتحدثان فى أسرار .؟

قال أحمد : وهل هناك أسرار تخفى عليك ، أنت الآن واحدة من العائلة .؟

ــ الأسرار العائلية على يقول لى عليها .. أما الأسرار العاطفية فهناك شك .!

قال على : أنت حبى الأول والأخير .. أما أسرار الحب ، فهذه لا تجوز إلا للدكتور أحمد ، وهو يا مولاى كما خلقتنى .!!

رد أحمد : أخوك الآن ضابط مجند ، ولا أفكر فى شىء سوى الجيش .. والحرب .

قالت فوزية :

ــ عندما تخرج بالسلامة سوف أختار لك عروسا مناسبة .

ــ بشرط أن تكون جميلة وطيبة مثلك .

دخلت آمال مبتسمة : العشاء جاهز .

* * *

أحس أحمد وحشة باردة عندما وجد نفسه وحيدا فى الحجرة . سرير على ما زال موجوداً يذكره بأخيه . كيف تمضى الأيام بمثل هذه السرعة ؟ كثيرا ما كان يختلف مع أخيه ، ويرفض بعض سلوكه وأفكاره . ليته الآن مثله . على أصبح رجلا ممتازا فى عمله ، وزوجا وفيا ، له بيت أنيق وزوجة جميلة .. عما قريبا سوف يصبح أباً . تمنى له التوفيق فى سره . أما هو .. فهو الحائر دوما .. إنه حائر فى السياسة .. مضيع فى الحب .. تائه فى الحياة ، ينشد حرية مفقودة ، وعدالة معدومة . لا يدرى لم تذكر عادل فهمى الذى آمن بمبادئه ، وجذبه إلى العمل السياسى .؟ لقد ضاع عادل كما يضيع كثير من البشر الذين نلتقى بهم فى الحياة ، لكن المبادئ ما زالت محفورة فى عقله وقلبه . تذكر عالم القرية ... بكل من فيه ، حتى الشيخ حسن ...!! كل الذكريات تهون إلا ذكريات القلب الجريح . جاءت منال مرة ثانية إلى البيت . احترم أحزانها الكبيرة وصمتها الصبور . أليس من الواجب عليه الآن أن يسأل عنها .؟ منال أمست ذكرى .. ومصير كل الذكريات إلى الزوال . نظر إلى زيه العسكرى معلقا على المشجب ، الحقيقة الوحيدة فى حياته الآن هى أنه جندى يتدرب من أجل المعركة القادمة .!!

* * *

الفصل الرابع عشر

عادت منال من قسم الشرطة خائفة تترقب ، تحس أنها محاصرة . ماذا كان يحدث لو لم يكن على موجودا .؟ ترى كيف يكون شعور الصول عبد الله حين يُستدعى لاستلام ابنته التى ضبطت فى فندق مع رجل . إحساس فظيع .. مرعب . أصرّت أن تنزل من العربة بعيدا عن البيت ، سارت فى الليل ، كأنما البيوت تلعنها وتقذفها بالحجارة . شعرت بخوف وهى تصعد السلم . فتحت الباب بهدوء ، حتى لا يشعر بها أحد . نامت أختاها أمينة وماجدة .. لكن الأم كيف تنام وابنتها قد تأخرت ؟ ما أن أغلقت الباب حتى وجدت الأم أمامها وجهاً لوجه . حاولت أن تتماسك ، حتى لا يبدو عليها أى مظهر للارتباك أو الخوف . تمنت أن تنام على صدرها ، وتبكى .. بكاء حاراً يغسل أحزانها . لو فعلت هذا ماذا تقول الأم المسكينة .؟!

ــ لم تأخرتِ يا حبيبتى ..؟ انشغلت عليك كثيراً . أحسست بانقباض شديد عندما تأخرت ، كنت أقول اللهم اجعله خيراً . لم أدر هل أنا مشغولة عليك أم على أبيك ..؟

ما زالت تحاول أن تتماسك ، لذلك غيّرت مجرى الحديث : هل نامت نائلة يا ماما .؟

ــ أخذت الرضعة ونامت فى أمان الله .

ـــ الحمد لله يا ماما .. الحمد لله .

ـــ ماذا تقولين يا ابنتى ؟.

ـــ أقول الحمد لله ، لن أخرج لأى شغل فى الليل ، حتى لو أعطونى كنوز الدنيا كلها .

ـــ ربنا يحميك لشبابك ، ويعوض صبرك خير يا حبيبتى .

دخلت حجرة نومها .. لا تدرى كيف خلعت ملابسها ، ولا ماذا لبست بعد ذلك .؟ ما كادت تستريح للحظة ، حتى عاودها الإحساس بالخوف . صداع يفلق رأسها . ذهبت إلى الحمام ، غسلت وجهها وتناولت كوبا من الماء . عادت مرهقة إلى السرير . تأملت نائلة فى صمت حزين . هل ستكونين أسعد حظا من أمك يا ابنتى .؟ القدر يحاربنى منذ جئت إلى الدنيا يا نانا . لا أمل فى اختراق جدران الفقر . مصطفى مات ، وفصيل الذى كنت أسعى عن طريقه للسفر إلى الخارج ذهب .. ولن أعود إليه . لا أمل ـــ أى أمل فى اختراق سور الفقر العظيم . كل محاولة للغزو الطبقى محكوم عليها بالفشل .. والعار !! هل هذا قدرى وحدى .. أم تلك سمة عصور النكسة وأيام الهزيمة .؟ حتى النوم ضاع كما ضاعت كل الأحلام . النوم لا يعرفه إلا خالى البال ، وهى ـــ يا حسرة عليها ـــ عندها من الهموم ما يكفى وزيادة .!!

تذكرت أباها المسافر دوما فى صحراء الحياة .. من أجل لقمة العيش . تذكرت مصطفى الذى راح ، وأحمد الذى ضاع ، وحسنين الذى رحل ، وشعبان الذى كان . كل شىء .. وهم .. سراب . لم يعد ثمة أمل فى شىء . حاولت أن تهرب من قدرها . لكن النحس لازمها فى كل خطوة .

هناك خاطر عنيد ألحّ عليها رغم التعب والحزن ، وهو أن تحاكم نفسها .. وتستعرض أحداث حياتها .. استرخت فى هدوء على السرير،وسرحت البصر المحيّر ، كأنما تقرأ سفر الماضى من بعيد .!!

* * *

بلغنى أيها القارئ السعيد ، ذو الرأى الرشيد ، أن المؤلف — الذى يحرص على إقناعك ورضاك — أحس بقدر من الأسى والحيرة ، حينما وصلت الأحداث بشخصياته عند هذا الحد من الصراع والأزمة ؛ فقد ترك الحرية لكل شخصية لتعبّر عن النموذج والمنظور اللذيْن تعكسهما . أكثر من هذا ليبرالية فى التصوير ، أنه سمح لها أن تناقشه فى طبيعة الدور الذى تقوم به . إن المأساة التى تشكلها منظومة هذا العالم الروائى لا تعبر عن قصة أفراد .. وإنما تحاول أن تصوّر جزءاً من مأساة شعب ، فى مرحلة من مراحل صراعه ضد المستعمر والمستبدّ فى آن واحد .

هوامش أخرى .. لا أهمية لذكرها :

١ — أعتذر لك — أيها القارئ العزيز — لأن الرواية خالية من مواقف التسلية والترفيه . كنت أود أن أكتب لك شيئا ينسيك بعض هموم الواقع وأوجاع الحياة ، لكن يبدو أنى أريد أن أذكرك بها . عذرى أنى مهموم .. غريب .. وحيد .. حزين .. مشغول بحبّ البشر أجمعين .!! وفيما بين الأمل والأسى .. بين الحلم والواقع .. بين الرغبة والرهبة ، أحس أنى مسيح يجرّ فى المنفى صليبه . غير أن المسيح كان يعرف اليهود ، أما يهود اليوم فقد تخفوا تحت أقنعة كثيرة ...!!

٢ — أقرّ وأعترف .. بأنى أهملت أكثر مما ذكرت ، ولم أستطع أن أقدم

قصة المحنة كاملة ، فالذى يزعم أنه قادر على تقديم صورة شمولية لأى واقع .. دعىٌّ أو مغرور ، أو يكون على الأقل مثل حمار خمينث ، الذى ذهب يطلب قرنيْن فعاد بلا أذنيْن ..!!

وأترك لخيالك الخصب أن يتصوّر لماذا قصصت ما ذكرت .. ولماذا تركت ما أهملتُ ......؟!

بيان آخر لمن يهمّه الأمر :

هذه الطريقة الطريفة فى كتابة الرواية بأسلوب ديمقراطى — يوحّدُ بين المؤلف وشخصياته وجمهوره — عرفتُ أخيراً أنها ظهرت فى بلاد الغرب — عن طريق أحد العملاء أو الجواسيس . فقد ذكر بعض النقاد الذين يحلو لهم أن يصفوا فكرهم بالتقدميّة والديالكتيكية ، أنه استمع ذات مرة لنا قد درس البنيوية فى السربون ، ويلدغ فى نطق حرفىْ الراء والنون ، محاضرة مع طلبته فى قسم اللغة الفرنسية ، حيث ثبّت الأستاذ نظارته الذهبية وأردف قائلا :

ذكر المسيو كاسيو أن هناك ثلاث نصائح ، ينبغى أن يكون الروائى على وعى تام بها ، وهى : التخطيط الفلسفى للحدث ، الحياة الواقعية للشخصية ، الرؤية المستقبلية للقضية .. وما عليكم بعد هذا إلا أن تلقوا بشطحات الرومانسية الصفراء إلى قطط الشعر الشقراء .!!

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الوالد الحبيب الحاج عوضين أبو عوف

أهديك يا والدى العزيز أجمل تحية وأعطر سلام .. كما أرجو تبلغ خالص تحياتى وأشواقى إلى الوالدة الحبيبة وإخوانى الأعزاء .

أنا بخير والحمد لله .. نحن هنا فى معسكر المدرعات ، نتدرب ليل نهار على قيادة الدبابات وطريقة استخدامها فى الحرب . الضابط يقول لنا إن المعارك الحديثة تعتمد على الطائرات والدبابات : الطائرات تضرب الضربة الخاطفة السريعة .. ثم يأتى دور الدبابات لتطهير المواقع والاستيلاء عليها . الجنود هنا من المؤهلات ، ويبذلون جهودا مضنية فى التدريب . الكل يستعد ليوم المعركة . نحن فى شمال السويس نرى اليهود الأنذال ، وهم يروحون ويجيئون على الشط الشرقى للقناة .. إنهم يظنون أن خط بارليف سوف يحميهم من نيران الغضب . اشتقتُ يا أبى إلى اليوم الذى أقود فيه الدبابة وأصل إلى هناك ، لأشفى غليلى .. وغليل كل أبناء جيل النكسة .

إن قلبى ينفطر حزناً حينما أرى قناة السويس معطلة مثل بركة راكدة ، لكن الله سبحانه وتعالى يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته .. ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾ .

أرجو أن تطمئن علىّ يا أبى .. أنت والسيدة الوالدة أم شعبان وجميع الإخوة الأعزاء . كما أرجو تبليغ سلامى إلى عائلة عمى يوسف البدراوى ،

وقل لأمى تكلم أم أحمد فى مسألة زواجى من الآنسة آمال — إذا لم يكن عندك مانع أنت والوالدة العزيزة ، لأن الزواج يجب أن يتم برضاء الوالدين ، اللذين أمرنا الله ورسوله بطاعتهما .

سلامى إلى عائلة عمى عبد الله الموجى ، وتحياتى وقبلاتى لجميع إخوتى الذين أرجو أن يهتموا بالمذاكرة والنجاح . التحية إلى كل سكان حارة المدرسة .. وإلى عباس بائع الخضار .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٣٠ / ٣ / ١٩٧٣ ابنكم العزيز

شعبان عوضين

جندى مؤهلات عليا

السويس ك ٢٥ ص . ب ١٩٣٧

ملحوظة : أرجو الرد سريعا بالنسبة لموضوع الآنسة آمال ، ولا يوضع على المظروف طابع بريد ، وإنما يكتب « بريد حربى » ، وسوف يصل بإذن الله فى خير وسلام .

* * *

عادت منال مع العصر إلى البيت فوجدت أمها ترضع نائلة ، وماجدة تذاكر فى كتاب . رمت حقيبة اليد على منضدة قريبة .. دون مبالاة :

ـــ أين أمينة يا ماما .؟

ـــ عندها محاضرات بعد الظهر .. أعدُّ لك الغذاء يا حبيبتى .

ـــ بعد قليل سوف أخلع ملابسى وأعده بنفسى ، كفاية تعب نانا .

أخذت طفلتها وبدأت تداعبها فى هدوء ، بينما قالت الأم :

ـــ أقطع يدى إن لم يكن هناك شىء .

ـــ خيراً يا ماما .. قالت ماجدة .

ـــ أم شعبان اليوم طالعة نازلة من بيت الأستاذ يوسف .. أكيد فيه سر .!

ـــ أى سر .؟

ـــ مشروع خطبة فيما أظن .. الراديو لم يغلق طوال اليوم من حجرة آمال .

ـــ يا ماما .. اتركى الناس فى حالهم ، ما فينا يكفينا .

أحست منال بدوار . قامت فدخلت غرفتها بعد أن أعطت الطفلة لماجدة . خلعت ملابسها وارتمت على السرير جثة هامدة . كلما تذكرت الموقف الصعب الذى حدث لها بالأمس القريب .. لا تستطيع أن تستعيده .

أحست أنها تحمل على كاهلها الغض أعباء الكون كله . ليست منال ضحية بقدر ما هى شهيدة ظروف صعبة . ليت الأيام تعود .. وتربينى يا أبى من جديد ، لأكون البنت ميمى ، وليس « الواد ميمى » ، يا بابا أنت ضحية الفقر وعدم التعليم والعمل بالجيش وخلفة البنات ، وأنا ضحية الحلم الزائف .. ونزوات القلب الشارد . لم تعد تدرى .. ما الصواب .. وما الخطأ .؟ لكن الذى تدركه أنها ضحية .. وأنها لن تكون آخر الضحايا .!!

أخذتها سنة من النوم .. لا تعى على أى جنب نامتْ دون غطاء . لم تكن نائمة على وجه التحديد .. ولم تكن مستيقظة أيضا . ماذا يمكن

تسمية هذه الحالة من حالات الضغط والضعف والانهيار ، حيث يكون المرء فى حالة المابيْن فى كل شىء .!! خلية نمل تنهش الرأس . جيوش من الآلام تسير فى كل أنحاء الجسد المسجّى . صدرها يعلو ويهبط . ضربات القلب تشتد . صوت الشهيق يعلو ويضطرب . حاولت فيما هى بين اليقظة والمنام أن تقوم وتستيقظ ، لا فائدة . لم تعد تدرك شيئا . غابتْ عن الوعى .!! رأت فيما يرى النائم .. أن الدنيا ظلام ، وأن الظلام كثيف ، وهى تسير فى حديقة أو غابة لا تستطيع أن تحدد .؟ الأشجار عالية ورؤوسها مثل رؤوس الشياطين ، الفروع تتدلّى منها شعلات من اللهب الأحمر القانى ، ضوؤها يخطف الأبصار . الأفق ملبد بسحب كثيفة من الغبار ، ومشبع برطوبة خانقة . حاولت أن تهرب إلى أين ..؟ لا تدرى . ظلت تجرى وتركض على الشوك وبين شعلات اللهب . ظلت تجرى .. وتركض .. والغبار يحجب الرؤية . حاولت أن تبحث عن ملجأ .. بلا جدوى . هُيئ لها أن غابة اللهب تخفى وراءها جيشاً من جيوش التتار . الغزاة دائما يأتون عبر الباب الشرقى . قائد مغولى ذو هيئة مرعبة ، يقف هناك مزهواً بسيف يبلغ طوله أربعين ذراعا .. والجنود من حوله يصيحون . برق ورعد يملآن المكان .. أحست بخوف مرعب . تراءى لها أبوها .. وأحمد .. وشعبان ، وسط جيش زاحف يسيرون فى ثقة نحو غابة الشياطين . لم يزايلها الخوف ، وإن شعرت ببعض الأمان . أرادت أن تشعر بالأمان أكثر ، فأخذت تصيح وتنادى : أنا هنا يا بابا .. أنا هنا يا بابا ... يا بابا .. يا بابا .. يا با ... يا .... يـ .....

ظلت تصيح إلى أن استيقظتْ فزعة من الرؤيا . حاولت أن تجمع

أعضاءها المفككة وأعصابها المتعبة . اللهم اجعله خيراً . إنها رؤيا غريبة .. مفزعة ، تقع أيضا فى إطار المابيْن : بين الحلم والكابوس . أرادت أن تطرد شبح الخوف . أضاءت الغرفة .. وأخذت تردد .. اللهم اجعله خيرا . استيقظت الطفلة عندما أحست بالضوء . قامت وحملتها بين ذراعيها ، وهى تتأملها فى حب وشفقة . عندما نظرت فى عينيها البريئتين شعرت منال بقدر من الأمان والأمل .!!!

* * *

طـــه وادى

القاهرة : يوليو ١٩٨٤

الدوحة : مايو ١٩٨٦

مؤلفات طه وادى الأدبية

		طبعة أولى	طبعة ثانية
١ ــ عمار يا مصر	(مجموعة)	١٩٨٠	١٩٩١
٢ ــ الدموع لا تمسح الأحزان	(مجموعة)	١٩٨٢	١٩٩١
٣ ــ الأفق البعيد	(رواية)	١٩٨٤	١٩٩١
٤ ــ حكاية الليل والطريق	(مجموعة)	١٩٨٥	١٩٩١
٥ ــ الممكن والمستحيل	(رواية)	١٩٨٧	١٩٩١
٦ ــ دائرة اللهب	(مجموعة)	١٩٩٠	١٩٩١
٧ ــ الليالى	(سيرة ذاتية)	١٩٩١	١٩٩١

* * *

رقم الإيداع ٧١١٩ / ١٩٩١
الترقيم الدولى 3 - 0695 - 11 - 977